تاريخ أشراف الحجاز

أحمد بن زيني دحلان

تاريخ أشراف الحجاز

١٨٤٠ ـ ١٨٨٣

Library (GOAL
General Organization of The Alexandria Library

خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام

... الإسكندرية
رقم التسجيل

تحقيق وتحليل
الدكتور محمد أمين توفيق

دار الساقي

الفصل الثاني

حكم الأشراف للحجاز
(في الفترة من ١٨٤٠ ـ ١٨٨٣م)

نصُّ الوثيقة من كتاب طبعته دارُ الكتب المصرية طبعة يتيمة في عام ١٨٨٧م، لمفتي مكّة المكرّمة الشيخ أحمد بن زيني دحلان بعنوان: «خُلاصة الكلام في بيان أمراء بيت الله الحرام». (ص ٣١٠ ـ ٣٣١)

كان العسيريون قد توفي أميرهم علي بن مجثل، وكان من بني مفيد، وأقيم بعده أميراً عليهم، عائض بن مرعي، وكان أيضاً من بني مفيد. فاستفحل ملكه وتقوّى، وتغلب على بعض الممالك التي بقيت تحت طوع الدولة، مثل بني شهر وبيشة وبلاد غامد وزهران. فجهز محمد علي باشا عساكر كثيرة، ليتوجه بها مولانا الشريف[1] محمد بن عون، ويستخلص تلك الممالك. فتوجّه العساكر، وبقي أحمد باشا بمكة يمدّه بإرسال الذخائر والخزائن، ووقع بينه وبينهم وقائع، واستخلص تلك المواضع التي تغلبوا عليها، وأرجعها إلى حكم الدولة، فصارت بلاد غامد وزهران وبيشة وبني شهر تحت طوَعه، وتقدم إلى بلاد عسير ليستخلصها منهم ويرجعها كما كانت عند مجيء محمد علي باشا إلى الحجاز، فحصل من أحمد باشا تقصير في ارسال الذخائر والخزائن وما يحتاجون إليه، فحصل للعساكر ضيق شديد من ذلك، وهم محاصرون بلاد عسير، فوقع

الفشل في الجيوش وأدى ذلك إلى انهزام تلك العساكر. فرجع الشريف محمد بن عون إلى مكة، وكذلك العساكر.

كان ذلك سنة إحدى وخمسين، وأنكر أحمد باشا وقوع التقصير منه، ونسب التقصير إلى سيدنا الشريف محمد بن عون، فطلبهما محمد علي باشا ليحضرا عنده بمصر، ليتحاكما في ذلك. فتوجها إلى مصر في سنة اثنتين وخمسين، وأبقى الشريف محمد بن عون، وكيلاً عنه بمكة، الشريف مبارك بن عبد الله الحموي العبدلي، وأبقى أحمد باشا، وكيلاً عنه، أمير اللواء أمين بيك. فلما وصلا إلى مصر تحاكما عند محمد علي باشا، وثبت أن التقصير إنما كان من أحمد باشا، ولم يثبت على مولانا الشريف محمد شيء من التقصير. فأذن محمد علي باشا لمولانا الشريف محمد بالرجوع إلى مكة، فوسط أحمد باشا وسائط لمحمد علي باشا، وبذل لهم في ذلك مالاً جزيلاً على أنه هو الذي يرجع إلى مكة، ويبقى مولانا الشريف محمد بمصر.

وتعهّد أحمد باشا بأن يستولي على عسير بالعسكر، في ثلاثة أشهر. فحضر مولانا الشريف محمد عند محمد علي باشا، وأخبره بأن أحمد باشا يطلب الرجوع إلى مكة، وأنه يتعهّد بأن يستولي على عسير في ثلاثة أشهر. فقال له الشريف محمد: لا يقدر على ذلك، ولا بعد ثلاث سنين. فقال محمد علي باشا: نجرّبه وننظر ماذا يصير، وتبقى أنت عندي بمصر، ويتوجه هو. فقال مولانا الشريف محمد: لا بأس بذلك. فبقي مولانا الشريف محمد بمصر.

ورجع أحمد باشا، وكان معتمداً على بعض الأشراف، مثل الشريف منصور بن زيد الشنبري، فإنه كان مصطحباً مع أحمد باشا، وكان يتعهّد له بحصول هذا الأمر، وكان قد تولى إمارة غامد وزهران في بعض السنين، ويريد رجوعه إلى إمارته، وكان أحمد باشا معتمداً أيضاً على سلطان بن عبدة العسيري، والمذكور كان أميراً على قبيلة من قبائل عسير يقال لهم علكم، وكان قد وقع بينه وبين أمير عسير اختلاف، فأراد أن يقتله، فهرب وجاء إلى مكة مُلتَجِئاً قبل هذه الوقائع بسنين. فسعى له أحمد باشا عند محمد علي باشا في

ترتيب معاش جزيل ومرتبات جزيلة، فبقي بمكة مصطحباً مع أحمد باشا، ويداهن مولانا الشريف محمداً ظاهراً، وميله في الباطن مع أحمد باشا. فكان يَعِده أن قبائل عسير لا تخرج عن طوعه، وأنه إذا توجه مع أحمد باشا والعساكر يُملِّكه بلاد عسير. فلما رجع أحمد باشا من مصر، أبقى أمين بيك قائماً مقامه، وتوجه هو بالعساكر إلى الحجاز وبلاد غامد وزهران، ومعه الشريف منصور بن زيد، وكثير من الأشراف، وسليمان بن عبدة العسيري. فوقع بينه وبين عسير وقائع في الحجاز، وانتصر أحمد باشا في وقعة منها، في سنة ثلاث وخمسين، تُسمى وقعة الباحة. واستخلص منهم بلاد غامد وزهران، ثم رجعوا بعد ذلك وأخذوها. ولما حصلت له هذه النصرة، أرسل البشائر إلى مكة، وضربت المدافع، وأمروا بالزينة بمكة وجدة والطائف ثلاثة أيام. وأرسلوا إلى مصر لمحمد علي باشا، وعظموا هذه النصرة، مع أنهم ما قدروا أن يتقدموا بالعساكر إلى بلاد بني شهر، ولا إلى بلاد عسير، بل في سنة أربع وخمسين، رجع العسيري إلى بلاد غامد وزهران واسترجعها. والحاصل أن الأمر استمر بلا نتيجة ولا فائدة، إلى سنة ست وخمسين، ومولانا الشريف محمد بن عون مقيم بمصر ومعه ولده الشريف عبد الله، والجميع في عز وإكرام، وولد لسيدنا الشريف محمد بمصر ولده الشريف حسين، في أواخر سنة أربع وخمسين، وأرسله إلى مكة ليكون عند المراضع، فوصل إلى مكة في المحرم سنة خمس وخمسين.

فلما كانت سنة ست وخمسين، بعد انعقاد الصلح بين مولانا السلطان عبد المجيد ومحمد علي باشا، كان من جملة شروط الصلح أن يترك محمد علي باشا الحجاز والشام، ويفوض الجميع لمولانا السلطان، ويبقى له ولأولاده ملك مصر وأعمالها. فأذِن محمد علي باشا، لمولانا الشريف محمد[1]، أن يرجع إلى مكة في امارته كما كان، وأن يجهز له عساكره التي بالحجاز، ويرسلها إلى مصر، لأنه كان له عساكر كثيرة بالحجاز والحربية أعني بلاد حرب[2]. وخشي أنه إذا شاع زوال حكمه عن الحجاز يحصل اضطراب بالحجاز، فيقع ضرر على عساكره. ورأى أنه لا يحصل التسكين والأمن في الحجاز، ويتسهل إرسال العساكر إلا بمولانا الشريف محمد بن عون.

وكانت العساكر التي في حرب بمعية سليم باشا الملقب اطزبير، وكان مخيماً بعساكر في الغازية والخيف[4]. وكان قد ملك تلك البنادر والخيوف، وضايق قبائل حرب أشد المضايقة، وقطع كثيراً من نخيلهم، وفرّوا هاربين إلى رؤوس الجبال، وصاروا منحصرين فيها. وتقطعت الطرق، وحصل لأهل المدينة ضيق شديد، وانقطعت عنهم الذخائر. واشتدّ الغلاء عندهم، حتى بلغ الأردب[5] القمح ثلاثين ريالاً[6]. فاستحسن محمد علي باشا أن يكون توجه مولانا الشريف محمد أولاً إلى بلاد حرب، لإزالة هذه المشكلات، وإرسال عساكره التي هناك. فتوجه من مصر في سنة ست وخمسين.

فلما وصل إلى موضع العساكر، شاع خبر وصوله عند قبائل حرب المنحصرين في الجبال، فحصل لهم خوف شديد، وأيقنوا بالهلاك والاستئصال. فأرسلوا له يطلبون الأمان حتى يقهرهم بالسيف ويطلع الفقرة[7]. فتجهز بتلك العساكر، وقصد الفقرة، وهي أعظم جبل لهم يتحصنون فيه، ولهم في الفقرة نخيل ومزارع وأموال كثيرة. فلما أقبل على الفقرة، ما قدروا على قتاله، بل فرّوا في كل جهة. فطلع الفقرة وأحرق فيها أماكن، وقطع بعض النخيل، وصار لقبائل حرب غاية الذل والهوان. ثم أرسلوا يطلبون منه الأمان فأمنهم. فأقبلوا عليه أفواجاً، وعاهدوه. واشترط عليهم شروطاً فقبلوها، ثم رجع من الفقرة، وأرسل العساكر إلى مصر بغاية الراحة والأمن، ثم توجّه إلى المدينة، وسلكت الطرق، وارتخت الأسعار، وزالت تلك الشدة.

ولما دخل المدينة، كان بها عثمان باشا، من طرف الدولة، شيخاً على الحرم النبوي، وشريف بيك مديراً على الحرم، ثم صار باشا بعد ذلك. ولما دخلا على مولانا الشريف محمد، يوم قدومه المدينة، للسلام عليه والتهنئة بالقدوم، قالا له: أنت غوث الحرمين، أغاث الله بك أهل مكة في سنة ثلاث وأربعين، وأغاث بك أهل المدينة في هذا العام. فأجابهم ارتجالاً حالاً بقوله: وأنا ابن عون، وابن عون إذا صُحِّفَ يكون أنت غوث[8] فتعجبا من استحضاره لهذا الجواب. ثم إنه بعد قدومه المدينة، حصل له مرض شديد، وأرسل إلى مكة

وطلب أهله. فأرسلوا إليه إلى أن شفاه الله تعالى من المرض. وتمم الإصلاحات المتعلقة بالمدينة وأعمالها، ورجع إلى مكة في آخر سنة ست وخمسين. وفي آخر شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، كانت ولادة ابنه الشريف عون الرفيق الذي كانت أمه حملت به وهم في المدينة، فهو مدني مكي وسماه السيد اسحق شيخ السادة، في الدار التي بالشامية لسيدنا الشريف محمد بن عون المشهور بدار الجيلاني، وحضرت تسميته، وكان في مدة مكثه في المدينة أرسل ابنه مولانا الشريف عبد الله إلى مكة، وكان ارساله من مصر حين عزم على التوجه إلى بلاد حرب. فلم يتوجه معه ابنه المذكور إلى بلاد حرب، بل قدم إلى مكة، وصار قائماً مقامه، وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة. فقام بالأمر وكالةً عن أبيه أتمَّ القيام، وحصل بعد قدومه تجهيز العساكر المصرية التي بالحجاز، وأرسلت إلى مصر في غاية الأمن والاطمئنان، وتوجه أحمد باشا وأمين بيك إلى مصر[٩].

ثم وجهت الدولة ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي لعثمان باشا[١٠]، الذي كان شيخاً للحرم النبوي، ووجهت مشيخة الحرم النبوي لشريف بيك، الذي كان مديراً بالمدينة وصار شريف باشا، وقدم عثمان باشا مكة أيضاً سنة ست وخمسين، ثم أقام عثمان باشا مولانا الشريف عبد الله بن سيدنا الشريف محمد بن عون قائماً مقامه، فصار قائماً لمقام الإمارة والولاية جامعاً بينهما. ولما رجع سيدنا الشريف محمد بن عون من المدينة، أبقى في المدينة الشريف محمد بن عبد الله بن سرور قائماً مقامه. واستمر الأمر بين مولانا الشريف محمد وعثمان باشا بغاية الاتفاق والمحبة إلى سنة ستين، فوقع بينهما اختلاف، سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ولما توجهت العساكر المصرية إلى مصر، كان لمحمد علي باشا بالحجاز كثير من الذخائر والمهمات والجبخانات. فقومت جميعها بالقيمة، واستقبلتها الدولة لتخصم من الخراج المقرر على محمد علي باشا، في مقابلة ولايته مصر. وكانت تلك الذخائر والمهمات شيء لا يمكن حصره ولا ضبطه. من جملة ذلك أنه وُجِد

لـه، من صنف العدس وحـده بمكة، ثـلاثـة وعشرون ألف أردب، وقس عـلى ذلك بقية الأشياء.

وتقدم أن محمد علي باشا، لما كان بالحجـاز، رتّب معاشـات ومرتبـات لكثير من الأشراف وغـيرهم. فاستقبـل عثمان بـاشا ذلـك كله، وعرّف بـه الـدولـة، فأجازته وأمرت ببقائه، وصيرته في دفاترهـا. وكذلـك تقدم أن محمـد علي بـاشا جدد دفاتر قمح الجراية المرتبة لأهل مكة، ورتّبهـا على تـرتيب غير الـذي كانت عليه، لأنه وجدها بأيدي التجار والأغنياء بالفراغات وليس بأيـدي الفقراء منهـا شيء، فأبطل تلك الـدفاتـر، ورتبها عـلى ما هي عليـه الآن. فلما وصل عثمان باشا، وصار الحجاز للدولة، أبقى دفاتر الجرايـة على الـترتيب الذي رتبـه محمد علي باشا[11].

وينبغي أن نذكر هنا تجهيز محمـد علي بـاشا عـلى الدرعيـة والريـاض، لقتال فيصل بن تركي بن عبد الله بن أخي عبد العزيز والـد سعود، فيكـون عبد الله والد تركي ابن عم سعود كما تقـدم. وقد تقـدم أيضاً أن فيصـل بن تركي تملّك نجداً بعد أبيه، ثم قوي واستفحل ملكه، ورجع إلى إشهار الـدعوى التي كـان عليهـا أسلافـه. فلما بلغت الأخبار محمـد علي بـاشا، أمـر بتجهيز العسـاكر إلى قتاله، وجعل على تلك العساكر خورشيد باشا الذي كان محـافظ مكة سنـة سبع وأربعـين، ووقعت الفتنة بينـه وبين تـركي بلماز، كما تقـدم بيان ذلـك. فتجهز خورشيد باشا بالعساكر الكثيرة للمسير إلى نجد، وكان مسيره من المدينة المنـوّرة سنة ثلاث وخمسين. فلما وصل إلى نجد، وقع بينه وبين فيصل بن تركي وقـائع حصل فيها قتال شديد، يطول الكلام بذكره. واستمر الأمـر بينهما إلى أن قبض على فيصل، واستولى على الدرعية والـرياض وغـيرهما. وأرسـل فيصل إلى مصر لمحمد علي باشا سنة أربع وخمسين. وكان صحبة خورشيد باشا خالـد بيك ابن سعـود، وكان خـالد من الأسرى الـذين قبض عليهم ابراهيم بـاشا سنـة ثلاث وثلاثين، وأرسلهم إلى مصر. فكبر خالـد بن سعود، وتـربى بمصر. فاستحسن محمد علي باشا أن يجعله أميـراً في نجد، بـلاد آبائـه. فأرسله صحبـة خورشيـد

باشا، ورتّب له المرتبات الجزيلة. فلما قبض خورشيد باشا على فيصل بن تركي، وأرسله إلى مصر، أقام خالد بن سعود أميراً في الرياض، ومهد له الأمور إلى أن استقر أمره. ورجع خورشيد باشا بالعساكر، فاستمر خالد بن سعود سنتين، ثم ظهر منه عدم استقامته، وعدم سلوكه على الطريقة التي يرتضيها أهل نجد، فثار عليه رجل يقال له عبد الله بن ثنيان، قيل إنه ليس من آل سعود أهل الإمارة، وقيل إنه منهم، فتغلب وعاهده الناس وأراد الفتك بخالد بن سعود، فهرب خالد وجاء إلى مكة هارباً. وكان يتردد بين مكة وجدة إلى أن توفي، وكان له معاش جزيل مرتب من محمد علي باشا. وصار أمر نجد لعبد الله بن ثنيان. فلما بلغ الخبر فيصل بن تركي الذي أرسله خورشيد باشا إلى مصر محبوساً، صار فيصل يدبر الأمر في هربه من مصر، ليصل إلى نجد، وينتزع الملك من عبد الله بن ثنيان. فسهّل الله له ذلك، بإعانة عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا. وكان الأمر في ذلك الوقت لمحمد علي باشا ولابنه ابراهيم، وليس لعباس باشا شيء من الأمر إلا أنه كان محبباً عند جده محمد علي باشا، مسموع الكلمة عند رجال دولته. وكان يجتمع كثيراً بفيصل بن تركي وهو محبوس، فقال له فيصل يوماً: إن نجداً صارت بيد عبد الله بن ثنيان، فلو أتخلص من الحبس، وأصل إلى نجد، أنتزع الملك منه، إن شاء الله تعالى، وأصير خادماً لأفندينا، تحت أمره. فوعده عباس باشا بأنه يدبر هذا الأمر له، وأمره بكتمانه. ثم بعد أيام، أحضر له ركائب وخيلاً خِفْيَةً، وضعها بموضع بعيد عن مصر، واحتال في إخراجه من القلعة المحبوس فيها، بمواطأة مع البواب سرّاً. فخرج في ليلة، ووصل إلى المواضع التي فيها الركائب والخيل هو وبعض أتباعه، وركبوها وتوجهوا إلى نجد. وبعد يومين، بلغ خبر هروبه ابراهيم باشا، فأركب كثيراً من العسكر يسيرون خلفه ليدركوه، وكان ممن ركب معهم عباس باشا. فساروا يومين، فلم يدركوه فرجعوا. ولم يزل فيصل سائراً، هو ومن معه، إلى أن وصلوا جبل شمر، وقصدوا ابن رشيد أمير جبل شمر، فأضافهم وأكرمهم وأحسن نزلهم. ثم سار بكثير من قومه معهم وقصدوا القصيم، فلما وصلوا القصيم، قابلهم أهله وأضافوهم وأكرموا نزلهم، وساروا

معهم بكثير من قومهم معهم فصار الجميع جيشاً فقصدوا عبد الله بن ثنيان، وهو في الرياض، فقاتلوه وحصروه إلى أن قبضوا عليه وحبسوه، ثم قُتِل شنقاً في الحبس، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين.

واستقل فيصل بالمُلْك، واستقامت له الأمور، واستمر إلى أن توفي سنة اثنتين وثمانين. وأصابه في آخر عمره غشاوة في عينيه، فصار لا يبصر. فكان يوقف عنده بعض خدمه، يعرّفونه الناس، ويخبرونه بكل مَن أقبل للدخول عليه قبل أن يصل إليه. ولما توفي فيصل، قام بالأمر من بعده ابنه عبد الله. ثم وقع بينه وبين إخوته اختلاف، فانتزعوا الأمر منه، وقام به أخوه سعود بن فيصل ثم مات ورجع الأمر إلى عبد الله، وهو باق إلى الآن أعني سنة ألف وثلاثمئة. إلاّ أنّ ملكه صار ضعيفاً جداً، لأن الدولة العلية انتزعت منه الحساء والقطيف، وخرج عن طاعته أهل القصيم، وصاروا تحت أمر الدولة. وكذلك ابن رشيد، أمير جبل شمر، قوى ملكه، وخرج عن طاعة عبد الله بن فيصل، وصار تحت طاعة الدولة، ويدفع لهم خراجاً. وكذلك أهل القصيم يدفعون للدولة خراجاً وأميرهم منهم. ولم يبق تحت طاعة عبد الله بن فيصل سوى القبائل القريبة منه.

ولنرجع إلى إتمام مدة إمارة سيدنا الشريف محمد بن عون، وقد تقدم أنه كان بينه وبين عثمان باشا غاية المحبة والألفة إلى سنة ستين، ثم حصل بينهما تنافر واختلاف سببه أن عثمان باشا أغراه بعض الناس على بعض الأمراء من الأشراف، منهم الشريف سلطان بن شرف، والشريف عبد الله بن زيد بن سليم، وقالوا له إنهم يأخذون أكثر المتحصل من الزكوات المتحصلة من رعاياهم، ولا يدخلون الخزانة إلاّ النزر اليسير، فتهدد عثمان باشا بعض الأمراء الذين قيل فيهم ذلك، فلما بلغ الخبر مولانا الشريف محمداً غضب لذلك، وحصل بينه وبين عثمان باشا التنافر، ونزل عثمان باشا إلى جدة وأقام بها، وتوجه مولانا الشريف محمد إلى الطائف ثم إلى المبعوث وأقام به. وصار كل منهما ينتظر الجواب من دار السلطنة، لأن كُلاًّ منهما أتى إلى الدولة الشكاية. وفي تلك المدة كَثُرَ القيلُ والقال، وصار الناس، أهل الفساد، يشيرون الشر

بينهما، ويختلقون كثيراً من الأكاذيب. وأمر عثمان باشا كردعثمان كبير العساكر الخيالة، أن يتوجّه بالعساكر إلى المبعوث، ويكون في مقابلة سيدنا الشريف محمد. وقصد بذلك التخويف والمحافظة عليه. فلم يكترث بهم مولانا الشريف، بل أذن لهم بالنزول في مقابلته. وكان كردعثمان يأتي إليه ويقبّل يده، ويجلس عنده وهو يقابله ويكرمه. وأرسل عثمان باشا إلى الدولة يطلب منهم إرسال الشريف علي بن غالب إلى مكة، وأظهر أنّ القصد بذلك حضوره عند أهله، لحفظ أموالهم. فأذنت الدولة للشريف علي بن غالب بالتوجّه. وكان مولانا الشريف محمد بن عون عرّف محمد علي باشا بما هو حاصل بينه وبين عثمان باشا، وكان محمد علي باشا يحب الشريف محمداً لكونه السبب في أصل ولايته إمارة مكة، فصار محمد علي باشا مجتهداً في نصرته، وكان مسموع الكلمة عند الدولة ورجالها. فلما توجه الشريف علي بن غالب من دار السلطنة، وجاءت الأخبار إلى مكة بتوجهه، كَثُرت الأراجيف بمكة، وشاع بين الناس أنه إذا وصل يتم مراد عثمان باشا، ويقبض على مولانا الشريف محمد، ويأتي بعد ذلك الشريف عبد المطلب أميراً على مكة. وكَثُرت هذه الإشاعات، ولما وصل الشريف علي بن غالب إلى مصر أكرمه محمد علي باشا غاية الإكرام، واحتفل به غاية الاحتفال، وكان ذلك سنة إحدى وستين. ثم بعد ذلك بثلاثة أيام، توفي وانتقل إلى رحمة الله تعالى بمصر، فقيل إنه مرض، وقيل مات مسموماً، والله أعلم بحقيقة ذلك. ثم إن محمد علي باشا عرّف الدولة العلية بما هو حاصل من عثمان باشا، من المضاررة للشريف محمد بن عون، وطلب منهم أن يعزلوا عثمان باشا من ولاية جدة، ويرجعوه إلى مشيخة حرم المدينة، وأن شريفاً باشا الذي في المدينة يكون والياً على جدة وشيخ الحرم المكي. فأجيب محمد علي باشا إلى ذلك، وصدر الأمر من الدولة بذلك. فلما جاءت الأخبار لعثمان باشا بما صدر به الأمر اغتمّ ومات من ليلته، وقيل إنه سمّ نفسه، وكان ذلك أيضاً سنة إحدى وستين. ثم جاء شريف باشا من المدينة، بعد وصول الأمر له من الدولة العلية، ووقع بينه وبين مولانا الشريف محمد بن عون غاية المحبة والألفة، واستقامت الأحوال على أتم النظام.

وفي سنة اثنتين أو ثلاث وستين، توجه مولانا الشريف محمد بن عون إلى نجد، بأمرٍ من الدولة العليّة، لإخماد فيصل بن تركي أمير الرياض[١٢]، لأنه بلغ الدولة أنه استفحل ملكه، ويخشى من تطاوله كما كان من أسلافه. فصدر الأمر من الدولة بتوجيه العساكر لقتاله وإخماده، وأن يكون ذلك بمعرفة الشريف محمد بن عون وتدبيره. فأخذ العساكر وتوجّه بنفسه وكان توجهه من المدينة، ولم يزل سائراً بالعساكر والقبائل تطيعه، وسار معه ابن رشيد أمير جبل شمر بكثير من القبائل. فلما وصلوا إلى القصيم[١٣]، نزلوا به، فقابلهم أهل القصيم وأعطوهم الطاعة، ووعدوهم النصر. فلما بلغ الخبر فيصل بن تركي دخله غاية الرعب، وأرسل لأهل القصيم وطلب منهم أن يجتهدوا له في عقد صلح، ويضعوا عليه خراجاً، فاجتهدوا مع مولانا الشريف محمد في الصلح إلى أن رضي، ووضعوا على فيصل بن تركي خراجاً، لكل سنة عشرة آلاف ريال، فرضي بذلك فيصل، وتمّ الصلح. ورجع مولانا الشريف محمد بالعساكر في سنته تلك، وكان رجوعه من الشرق إلى الطائف، واستمر فيصل يدفع ذلك الخراج سنين كثيرة إلى أن توفي فيصل، ثم انقطع دفْع ذلك الخراج، وتقدم أنّ وفاة فيصل كانت سنة اثنتين وثمانين[١٤].

وفي سنة أربع وستين، تخلّى محمد علي باشا عن ملك مصر لمرض أصابه، فقلده ولده ابراهيم باشا، ومكث نحو أحد عشر شهراً، وتوفي في ذي الحجة من السنة المذكورة. فأقيم في ولاية مصر، عباس باشا بن طوسون باشا ابن محمد علي باشا. وفي رمضان سنة خمس وستين، توفي محمد علي باشا، وعمره تسع وسبعون.

وفي سنة أربع وستين، وجهت الدولة، للشريف عبد الله ابن مولانا الشريف محمد بن عون، رتبة باشا ميرميران بنيشان، ولأخيه الشريف علي رتبة باشا أمير الأمراء بنيشان. ثم بعد مدة، جاء مثل ذلك لأخيه الشريف الحسين، ثم جاء بعد مدة مثل ذلك لأخيه الشريف عون الرفيق، ثم بعد مدة جاء مثل ذلك لأخيه الشريف عبد الله، ثم بعد مدة ترقّى الجميع إلى أن أعطوا رتبة الوزارة. وفي سنة خمس وستين، عزل شريف باشا وتولّى بدله حسيب باشا.

وفي هذه السنة، توجّه الشريف عبد الله باشا بكثير من العساكر إلى بيشة لإخماد عسير[١٥]، لأنهم تطاولوا واستولوا على بيشة وبني شهر[١٦]؛ فسار بالعساكر، وأرجع تلك المواضع إلى حكم الدولة، وعقد صلحاً مع عسير، على أنهم لا يتجاوزون بلادهم. وفي هذه السنة أيضاً، توجه سيدنا الشريف محمد بن عون إلى الحديدة بكثير من العساكر الباقية، بعد الذين توجهوا إلى بيشة مع الشريف عبد الله. وكان توجه مولانا الشريف محمد إلى اليمن، من طريق البحر، وانتزع الحديدة[١٧] والمخا[١٨] وزبيد[١٩] وبيت الفقيه[٢٠]، من يد الشريف الحسين بن علي بن حيدر، لأنه كان تغلّب عليها وملكها. فلما وصل مولانا الشريف محمد بالعساكر، خاف الشريف الحسين وسلم البنادر المذكورة لسيدنا الشريف محمد بلا قتال، ووعدوه بأن الدولة ترتب له مرتبات في مقابلة ذلك. ووفى له بذلك، ثم بعد تملكه تلك البنادر رتبها وجعل فيها أمراء، وجعل الشريف عبد الله بن شرف في المخا، وكان قد أعطي رتبة باشا، ومكث هناك أميراً إلى أن توفي بعد سنة. وأما سيدنا الشريف محمد فإنه بعد تملكه البنادر، أرسل العساكر إلى صنعاء، ومعها معاونه توفيق باشا، والسيد اسحق شيخ السادة، ومعهم محمد بن يحيى من أبناء أئمة صنعاء[٢١]، فتملكوا صنعاء ووضعوا فيها إماماً محمد بن يحيى، ثم بعد أيام ثار عليه أهل صنعاء وقتلوه، وقتلوا توفيقاً باشا، وبعض العسكر وأخرجوا الباقين. وأما الحديدة وبقية البنادر فبقيت على ما رتبها عليه سيدنا الشريف محمد بن عون ورجع من سنته، وكان رجوع ابنه الشريف عبد الله من بيشة قبل رجوعه، وفي مدة غيبتهما كانت أكثر الأحكام بتصرف حسيب باشا، ورتب مجلساً من العلماء والمفتين الأربعة في كل أسبوع، وصار يصنع لهم طعاماً من أفخر الأطعمة الملوكية في كل أسبوع، وأظهر في أول الأمر أنه يريد التحقيق في الأحكام الشرعية وإجرائها على طِبْق الشرع الشريف، وقسم هدايا جزيلة على العلماء، ثم ظهر بعد ذلك أنه إنما يريد انتزاع الأوقاف السلطانية من أيدي الناس الذين استولوا عليها بالفراغات الشرعية، فلم يمكّنوه من ذلك. وقال له مفتي مكة، السيد عبد الله المرغني: لا يسوغ لك ذلك بحال. فعزله وقلد منصب الإفتاء للسيد محمد الكتبي الحنفي الأزهري، وظن

أنه يوافقه على مراده، فصار السيد محمد الكتبي متحيّراً في هذا الأمر، وانعقد لذلك مجالس كثيرة في كل أسبوع. فأراد حسيب باشا فتح دعوى على السيد عبد الله بن عقيل، أخي السيد اسحق شيخ السادة، لينتزع منه داراً بناها السيد عبد الله المذكور، بالقرب من الصفا، وأصلها من الأوقاف السلطانية. فلما تحقق السيد عبد الله بن عقيل أنه يريد فتح الدعوى عليه، ركب بالليل على ركائب وتوجه من طريق البر إلى مصر، ثم منها إلى دار السلطنة، وكتب أهل مكة محضراً خِفْيَةً عن حسيب باشا، وبعثوا به إلى السيد عبد الله بن عقيل، ليقدمه إلى مولانا السلطان، وفيه جملة من أختام أعيان أهل مكة من العلماء والأشراف والسادة وغيرهم، مضمونة الشكاية من حسيب باشا، وأنه يريد انتزاع الأوقاف السلطانية من أيدي أهلها الواضعين أيديهم عليها بالفراغات الشرعية، فقدمه السيد عبد الله بن عقيل لمولانا السلطان، وانعقد لذلك مجالس في دار السلطنة، ثم برز الأمر من السلطنة السنية بمنع حسيب باشا عن التعرّض للأوقاف السلطانية، وإبقاء ما كان على ما كان، وتحرر لذلك فرمان[٢٢] سلطاني بطرة مولانا السلطان عبد المجيد، ابن مولانا السلطان محمود، وجاء به السيد بن عقيل، وكان حسيب باشا بعد أن تحقق، توجّه السيد عبد الله بن عقيل إلى دار السلطنة، أمسك عن فتح الدعاوى في الأوقاف السلطانية، ينتظر ماذا يكون بعد وصول السيد عبد الله بن عقيل. فلما جاء السيد عبد الله بن عقيل بالفرمان المذكور، بطل كل ما أراده حسيب باشا، واطمأن الناس، وكان الفرمان المذكور بالعربي، والخطاب فيه لأمير مكة سيدنا الشريف محمد بن عون، فقرىء الفرمان بحضوره وحضور حسيب باشا ومجمع من وجوه الناس، فامتثل ذلك حسيب باشا، ورجع عما كان في عزمه. وبقي هذا الفرمان محفوظاً عند السيد عبد الله المرغني، بعد أن سجل في سنجل قاضي مكة. ثم جاء الأمر من شيخ الإسلام، عارف عصمت بيك، لحسيب باشا بإرجاع منصب الفتوى للسيد عبد الله المرغني ففعل ذلك. ثم جاء بعد ذلك العزل لحسيب باشا في شوال سنة ست وستين، وكان ابتداء ولايته في آخر سنة أربع وستين. ووصل إلى مكة في المحرم سنة خمس وستين، فكانت مدة ولايته

بمكة سنة وتسعة أشهر. وولى بدله عبد العزيز باشا الملقب آقه باشا، واشتهر بلقبه، فوصل إلى مكة في شوال سنة ست وستين. وتوجه حسيب باشا إلى المدينة للزيارة، ثم منها إلى دار السلطنة، وكان معه شريف باشا، لأنه لما عزل حسيب باشا، لم يتوجه إلى دار السلطنة، بل بقي بمكة مصطحباً مع حسيب باشا، إلى أن توجها معاً بعد عزل حسيب باشا، ومجيء آقه باشا لمكة.

وفي سنة سبع وستين، نزل الشريف عبد الله باشا إلى جدة، ومعه أخوه الشريف علي باشا، لقضاء بعض أشغال لهما. فحضرا يوماً عند آقه باشا، وكان ذلك في شهر رجب من السنة المذكورة، فأبرز لهما أمراً سامياً من الصدر الأعظم رشيد باشا، مضمونه حضورهما مع والدهما سيدنا الشريف محمد بن عون، بمضمون ذلك الأمر، فامتثل الأمر، ونزل إلى جدة، وركب مع ولديه في المركب، وتوجهوا إلى دار السلطنة، ومعهم بعض العسكر من طرف آقه باشا في مكة، الشريف منصور بن الشريف يحيى بن سرور قائماً مقام أمير مكة. وشاع بين الناس أن الدولة تريد توجيه الإمارة لسيدنا الشريف عبد المطلب، وحسن السيد اسحق لآقه باشا أنه يطلب توجيه الإمارة للشريف منصور بن يحيى، فكتب في ذلك، وأصحبه محضراً من الأشراف وغيرهم من أعيان الناس، مضمونه طلب الإمارة للشريف منصور، فلم يصادف ذلك عند الدولة العليّة قبولاً، بل وجهت الإمارة لمولانا الشريف عبد المطلب في شهر رمضان، ووصل إلى مكة في ذي القعدة من السنة المذكورة.

ولما وصل مولانا الشريف محمد وأولاده إلى دار السلطنة، حصل لهم غاية العز والإكرام، وأنزلوا في المنزل اللائق بهم، وأجرى عليهم الضيافة اللائقة، ثم الترتيب اللائق بهم مدة إقامتهم. وولد الشريف عبد الله بمكة وهو في دار السلطنة مولود تركه في بطن أمه سموه شرفاً، وكانت ولادته في آخر سنة سبع وستين، وولد لأخيه الشريف علي بدار السلطنة، ولده الشريف حسين، وكانت ولادته في سنة سبعين.

وفي شهر المحرم من سنة ثمان وستين، توجه سيدنا الشريف عبد المطلب

لإصلاح قبائل حرب، ولبناء قلاع في الحربية. فقابله قبائل حرب بالطاعة، ومكّنوه من بناء القلاع فبناها، وأقام بها عسكراً، ثم توجه إلى المدينة وأقام بها مدة، ورجع إلى مكة في آخر السنة المذكورة. وقد وقع بينه وبين آقه باشا اختلاف وتنافر، وادعى على آقه باشا أنه ضاره مدة اقامته في الحربية، في ارسال الذخائر والخزائن والمهمات. وانعقد بينهما مجلس في شهر الحج، في دار أمير الحاج الشامي الذي جاء في ذلك العام، وهو أحمد عزت باشا الأرزنجاني، فأعان الشريف عبد المطلب، وأثبتوا الخطأ على آقه باشا، فأرسل مولانا الشريف عبد المطلب للصدر الأعظم رشيد باشا، يطلب عزل آقه باشا، وتوجيه ولاية جدة لأحمد عزت باشا الأرزنجاني، فأجيب إلى ذلك لأنه كان بين الشريف عبد المطلب ورشيد باشا صداقة. فلما رجع أحمد عزت باشا بالحج إلى الشام، وجهت له ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي، وعزل آقه باشا، فجاء أحمد عزت باشا المذكور إلى مكة صحبة الحج الشامي، في شهر ذي الحجة سنة تسع وستين ومائتين وألف. وأحمد عزت باشا هو الذي بنى البيت الذي بالزاهر بالقرب من شهداء فخ في مدة ولايته هذه.

وفي سنة سبعين توفي عباس باشا[٢٣]، صاحب مصر، وأقيم في ولاية مصر سعيد باشا ابن محمد علي باشا، وفي سنة سبعين، كان الشروع في عمارة المسجد النبوي، عمّره السلطان عبد المجيد بعمارة عجيبة لم ير الراؤون أحسن منها، واستمر في تعميره نحو أربع سنين. والبناء الذي كان قبله تعمير السلطان قايتباي، سلطان مصر.

ثم إن أحمد عزت باشا، المتولي ولاية جدة، لما وصل إلى مكة، حصل بينه وبين الشريف عبد المطلب اختلاف ومنافرة بعد وصوله بأيام قلائل، حتى صار الناس يتعجبون من سرعة وقوع الاختلاف بينهما. ثم طلع كل منهما إلى الطائف مع وجود تلك المنافرة فاتفق أنّ عزت باشا المذكور طلع يوماً إلى الوهط لزيارة عكرمة، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، على ما يزعمه كثير من الناس، والصحيح أن عكرمة مدفون بالشام، فلما رجع عزت باشا من الوهط قرب المغرب، صار عليه رمي بالبنادق من الجبال القريبة من المثنى[٢٤]، فقيل إن

بعض الرصاص أصاب طربوشه وسلمه الله منها، فوقع في ظنه أن وقوع هذا الأمر إنما كان بإغراء الشريف عبد المطلب، فاستحكمت العداوة بينهما، فنزل إلى مكة ولم ينزل الشريف عبد المطلب في تلك السنة من الطائف، وكتب كل منهما إلى الدولة العلية، يشكو من صاحبه بشكيات، فعزلت الدولة أحمد عزت باشا، وولوا كاملاً باشا، فوصل إلى مكة سنة سبعين في شهر رجب، فنزل الشريف عبد المطلب من الطائف قبل قدومه، وقابله وأضافه، وصار بينهما محبة وألفة، وكان بينهما محبة سابقة حين كان الشريف عبد المطلب في دار السلطنة. ثم بعد أيام صنع كامل باشا تعليماً للعساكر النظامية بالأبطح[٢٥]، وحضر هو والشريف عبد المطلب وغيرهما ممن يعتاد حضورهم، وفي أثناء حصول ذلك التعليم، جاء شخص للشريف عبد المطلب وأخبره بأنهم يريدون القبض عليه في هذا اليوم، فقام كأنه يريد قضاء حاجة، وخرج من المجلس وغاب طويلاً، ثم جاء الخبر لكامل باشا، أنه ركب وتوجّه إلى الطائف. فتفرّق الجمع الذين كانوا مجتمعين لحضور التعليم، وكان تفرقهم بعد تمام التعليم على ما هو المعتاد، ولم يعلم أحد بحقيقة الحال إلّا بعد مدة، وبقي الشريف عبد المطلب بالطائف، واستحكمت العداوة بينهما أكثر مما كانت مع عزت باشا وآقه باشا. وكان الشريف عبد المطلب يتّهم السيد اسحق لأنه هو الذي يلقي العداوة بينه وبين الولاة، لأن السيد اسحق كان من أكبر المحبين للشريف محمد بن عون. فلما تولى الشريف عبد المطلب نزل إلى جدة، واستقبله عند قدومه، ومدحه بقصيدة، وصار يصانعه ويظهر له الصداقة. فلم يأمنه الشريف عبد المطلب، لكونه يراه مصطحباً مع الولاة. فإن آقه باشا كان مقرّباً للسيد اسحق يستشيره في كثير من مهمات الأمور، ثم صار بعده عزت باشا كذلك، ثم كامل باشا كذلك، وكانت تأتيهم مكاتيب من الصدارة ومن شيخ الإسلام بالتوصية على السيد اسحق، وكان استخراج تلك المكاتيب من الصدارة ومشيخة الإسلام بواسطة الشريف محمد بن عون، وابنه الشريف عبد الله، فلما رأى الشريف عبد المطلب شدة اتصال السيد اسحق بالولاة، ورأى محبتهم له، لم يأمنه وصار يظهر له الكراهة، وإذا حضر عنده لم يلتفت له كل الالتفات، وكان قد عزله

من مشيخة السادة سنة تسع وستين، بعد عزل آقه باشا، وتولية عزت باشا، وأقام في مشيخة السادة أخاه السيد عبد الله بن عقيل، وبعد عزله زاد اتصاله بالولاة، وزاد تقريبهم له ومحبتهم إياه، لا سيما والمكاتيب من دار السلطنة يتوالى تكرارها عليهم، فاستحكمت العداوة بين السيد اسحق والشريف عبد المطلب. وزيادة على ذلك أن الناس الذين يسعون بالفساد، صاروا يوشون بينهما، وينقلون أشياء تتوغر منها الصدور، ويشيعونها بين الناس.

وفي سنة إحدى وسبعين، والشريف عبد المطلب بالطائف، وكامل باشا بجدة، أرسل الشريف عبد المطلب من الطائف عسكراً من عسكر بيشة، للقبض على السيد اسحق والإتيان به إلى الطائف. فجاؤوا خِفْيةً من طريق الحسينية[٢٦]، والسيد اسحق بداره المعروفة بالهجالية، فوجدوه بالبستان المتصل بالدار، وعنده نجار يصنع له ساقية، فقبضوا عليه، وذهبوا به على طريق الحفائر ثم على الحسينية، وتوجهوا به إلى الطائف. فلما جاء الخبر إلى مكة لقائم مقام كامل باشا، أركب العساكر ليدركوهم ويخلصوه منهم فلم يدركوهم. فلما وصل السيد اسحق إلى الطائف اركبوه حماراً أسود قصيراً، وكان السيد اسحق طويلاً ذا هيئة بهية، فكان ذلك تعزيراً له، وطافوا به في الطائف وسوقه وعسكر بيشة، والعبيد محيطون به، ثم حبسوه في القلعة التي في المثناة، المسماة مشرفة، تجاه دار الشريف عبد المطلب الكبيرة التي بناها في العام الذي قبله، ثم بعد ليلتين أخرجوه منها ميتاً، فصار بذلك تهمة على الشريف عبد المطلب. فمن قائل إنه مات خنقاً، وقائل إنهم عصروا خصيتيه حتى مات، والله أعلم بحقيقة الحال. فلما بلغ خبر موته كاملاً باشا، وهو بجدة، غضب غضباً شديداً، وأرسل رمزي أفندي مدير الحرم إلى دار السلطنة، ليبلغ هذا الخبر، وكثر في ذلك القيل والقال، وبقي الشريف عبد المطلب بالطائف، وما نزل ولا في وقت الحج، وانقضت السنة والأراجيف كثيرة.

فلما كان شهر صفر من سنة اثنتين وسبعين، وصل إلى جدة من دار السلطنة، باشا فريق يسمى راشد باشا. وشاع بين الناس أنه يريد القبض على

الشريف عبد المطلب، ويقيم الشريف عبد الله بن ناصر بن فواز بن عون قائماً مقام الشريف محمد بن عون، وكان متزوجاً ببنت الشريف محمد، وأبوه ابن عم الشريف محمد، وكان وكيلاً على بيته وأمواله في مدة غيبته. واتفق في تلك الأيام التي قدم فيها راشد باشا، أنه ورد التنبيه من كامل باشا لقائم مقامه بمكة، أن يجمع دلالي الرقيق ويمنعهم من بيع الرقيق، بمقتضى أمر جاء لكامل باشا من الدولة، ففعل قائم مقام الباشا ما أمره به، فصار للناس من ذلك انزعاج واضطراب، وصاروا يقولون: كيف يمنع بيع الرقيق الذي أجازه الشارع وهاج الناس هيجاناً شديداً. فاجتمع جماعة من طلبة العلم عند الشيخ جمال شيخ عمر، وكان رئيس العلماء، وقالوا نذهب إلى القاضي، ونذاكره في ذلك ليراجع كاملاً باشا، وهو يراجع الدولة في ذلك. فاجتمع معهم، وهم ذاهبون إلى بيت القاضي، خلق كثير من غوغاء الناس. فلما دخلوا على القاضي فزع منهم وهرب، ودخل إلى بيت حريمه، فزاد هيجان الناس واضطرابهم، وهاج بسبب ذلك بعض العساكر الضابطية الذين كانوا في دار الحكومة، ورأوا بعض الناس حاملين السلاح، ويقولون الجهاد، فثار من ذلك فتنة عظيمة، وصار الرمي بالبندق من الفريقين، وانتشرت الفتنة، ورمي البندق في الأسواق والطرقات، وصار القتل لكثير من العسكر وغيرهم. وتوقف بعض العسكر مع بعض أهل البلد في المسجد الحرام، وصاروا يترامون بالبندق، وقتل في المسجد أناس من ذلك الرمي، ففزع بعض الناس إلى الشريف منصور ابن الشريف يحيى بن سرور، وهو في داره، وسألوه تسكين هذه الفتنة، فأطلق منادياً في مكة لمنع الناس من الفتنة، فامتثلوا أمره وأمن الناس، وتحفظ على العساكر الشاهانية، واطلع كثيراً منهم القلعة، وكذلك الشريف عبد الله بن ناصر أدخل كثيراً من العسكر في دار الشريف محمد بن عون، وسكنت الفتنة.

فلما جاء الخبر في الطائف للشريف عبد المطلب، جمع القبائل، وقال: إني أريد حماية أهل مكة لئلا يصيبهم الضرر من كامل باشا، بسبب ما صار منهم. فلما وصلت لكامل باشا الأخبار الأولى التي حصل منها الفتنة، أرسل إلى أهل مكة بالأمان، وأنه يراجع الدولة في أمر الرقيق. فلم يطمئن الناس بذلك، بل

صاروا خائفين من سطوته. ثم لما بلغه أن الشريف عبد المطلب جمع القبائل، ويريد المجيء بهم إلى مكة، أرسل وطلب الشريف عبد الله بن ناصر إلى جدة، وكذلك طلب الشريف منصور بن يحيى، وقيل إن الشريف منصوراً توجه إلى جدة بلا طلب خوفاً من الشريف عبد المطلب، وتباعداً عن الفتنة، ثم توجه الشريف عبد المطلب بالقبائل من الطائف، وجاء بهم إلى مكة، وكان العساكر الشاهانية بالقلعة ومعهم أويس باشا قمندان العساكر، فأقام كامل باشا الشريف عبد الله بن ناصر قائماً مقام أمير مكة الشريف محمد بن عون، وكتب للشريف عبد المطلب أنك معزول، وأن الدولة وجهت إمارة مكة للشريف محمد بن عون، وقد أقمنا الشريف عبد الله بن ناصر قائماً مقامه؛ فلم يقبل منه الشريف عبد المطلب ذلك، وعقد مجمعاً في داره وأحضر فيه كثيراً من الأشراف والسادة والعلماء وأعيان الناس، وأخبرهم أني إنما جئت بالقبائل لحمايتكم ونصرة الدين، وعقد عهوداً ومواثيق بينهم، وصار أهل الحارات حاملين للسلاح ويعسّون في البلاد طول الليل. ثم إن كاملاً باشا جهز عسكراً من جدة، بعد أن أقام الشريف عبد الله بن ناصر قائماً مقام أمير مكة الشريف محمد بن عون، وأرسله مع العسكر الذين جهّزهم إلى بحره، ومعهم أيضاً راشد باشا الفريق الذي قدم من دار السلطنة، فنصبوا العرضي في بحره، وكتب الشريف عبد الله بن ناصر للأمراء من الأشراف وللقبائل وأهالي مكة، يخبرهم بحقيقة الحال، ولم يقبل ذلك الشريف عبد المطلب، وقال: هذا كله تزوير واختلاق من كامل باشا. وجهز كثيراً من القبائل وأرسلهم مع بعض الأمراء من الأشراف وغيرهم، لقتال العسكر الذين في بحره، فهجموا على العرضي، ووقع القتال بين الفريقين. ثم انهزمت تلك القبائل ورجعت إلى مكة، وتكرّر ذلك ثلاث مرات، وهم ينهزمون في كل مرة منها، وتكرّرت مكاتبات الشريف عبد الله بن ناصر لكثير من الأشراف وشيوخ القبائل وبقية الناس، فصاروا يتأخرون عن الشريف عبد المطلب، ودخلهم الفشل. وذهب كثير من الأشراف وشيوخ القبائل إلى العرضي في بحره، عند الشريف عبد الله بن ناصر، فصار يكرمهم بالكساوى وعطايا الدراهم. ثم انتقل بالعرضي إلى الشميسي، فلما تحقّق

الشريف عبد المطلب أن كثيراً من الناس تخلّوا عنه، وأخذوا الأمان من الشريف عبد الله بن ناصر، عزم على الخروج من مكة والتوجّه إلى الطائف، وقال للأشراف ولأهل مكة ومن بقي معه من القبائل: قد أعذرتكم، فخذوا الأمان لأنفسكم من الشريف عبد الله بن ناصر، وإني أريد التوجه إلى الطائف وأتجهز منه، ثم أتوجه إلى دار السلطنة من طريق البر. ثم توجّه إلى الطائف ومعه بعض أتباعه، وكان ذلك في آخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. ثم سار الشريف عبد الله بن ناصر وراشد باشا ومن معهم من العساكر من الشميسي، ودخلوا مكة، وأطلقوا المنادى بولاية سيدنا الشريف محمد بن عون إمارة مكة، وأمنوا الناس، ولم يعاقبوا أحداً من الناس الذين قاموا في تلك الفتنة. فاطمأنت البلاد وسكنت الفتنة، ونصبوا العرضي الذي فيه العسكر الذين جاؤوا معهم في الأبطح، وصار الشريف عبد الله بن ناصر يطلع في الليل، يبيت في العرضي في صيوان نصب له هناك، ويجلس فيه في النهار أيضاً في بعض الأوقات، وفي بعضها ينزل إلى دار سيدنا الشريف محمد بن عون. وصارت أحكام البلد كلها مفوضة إليه.

أما الشريف عبد المطلب فإنه لما وصل إلى الطائف، وهو عازم على التجهز والتوجّه إلى دار السلطنة من طريق البر، جاءه بعض الناس ونقضوا عزمه عن التوجّه إلى دار السلطنة، وحسنوا له أن يجمع قبائل الحجاز كبني سعد وغامد وزهران، ويجعلهم مع قبائل الطائف كثقيف وبني سفيان، ويقاتل بالجميع الشريف عبد الله بن ناصر ومن معه ويخرجهم من مكة؛ فوافقهم على ذلك، وترك التوجه إلى دار السلطنة، وأرسل للقبائل المذكورة، وجمعهم ودفع لهم أموالاً من عنده. وكان في قلعة الطائف عسكر من عساكر الدولة، فأخرجهم منها واستولى على القلعة، ثم أمر عسكر الدولة الذين كانوا في القلعة أن يتوجهوا إلى مكة، وكانت الطرق كلها مخوفة لانتشار العربان والقبائل فيها، وكان الشريف فواز بن ناصر، أخو الشريف عبد الله بن ناصر، في بلاد لهم تسمى رحاب، ومعه إخوانه وأهله. فخاف على عسكر الدولة الذين أخرجوهم من الطائف، أن تتخطفهم الأعراب في الطريق، فعارضهم بعد أن خرجوا من

الطائف وذهب بهم إلى رحاب وأضافهم وأكرمهم، ثم سيّر معهم من أوصلهم إلى الشريف عبد الله بن ناصر. ولما اجتمع كثير من القبائل عند الشريف عبد المطلب في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، أرسلهم إلى مكة وجعل عليهم أميراً الشريف الحسين بن منصور الشنبري، ومعه جماعة من الأشراف الذين كانوا مع الشريف عبد المطلب فهجموا على العرضي الذي في الأبطح، وثار الحرب بين الفريقين. وكان الشريف عبد الله بن ناصر في ذلك الوقت بمكة. فلما جاءه الخبر، ركب مسرعاً، وتواقف الفريقان إلى أن جاء الليل، فصعد القبائل التي جاءت من عند الشريف عبد المطلب إلى الجبال، وتحصنوا فيها إلى أن أصبح الصباح، فأعادوا الحرب، ثم انهزموا هزمة شنيعة، وقتل كثير منهم، وجاؤوا برؤوسهم إلى مكة. ثم جهّز الشريف عبد المطلب جيشاً آخر من القبائل، آخر شهر رجب، وسيرهم كالأولين، فخرج الشريف عبد الله بن ناصر بالعساكر إلى عرفة، حين بلغه إقبالهم ليقاتلهم هناك. فلما أقبلوا انتشب القتال بعرفة، ثم انهزموا مثل الهزيمة الأولى. ثم جهز الشريف عبد المطلب جيشاً آخر من القبائل في أواخر شعبان، وسيّرهم كالذين قبلهم ومعهم الشريف الحسين بن منصور الشنبري وبعض الأشراف. وقيل إن الشريف عبد المطلب سار معهم بنفسه في هذه المرة، فهجموا على العرضي الذي في الأبطح، واقتتلوا إلى أن جاء الليل، فتحصن القبائل بالجبال واتخذوا لهم متارس، وبات الشريف عبد الله بن ناصر تلك الليلة في العرضي، غاية الاحتراس، خوفاً على العساكر الشاهانية أن تهجم عليهم القبائل في الليل.

وفي تلك الليلة جاء البشير من جدة بخبر وصول سيدنا الشريف محمد بن عون إلى جدة، وكان ذلك في ثامن شعبان، فبات العساكر تلك الليلة في العرضي في فرح وسرور، مظهرين الزينة في العرضي، حين ورد إليهم الخبر بإطلاق المدافع والصواريخ وغير ذلك. فلما أصبحوا انتشب القتال قليلاً ثم انهزمت تلك القبائل هزيمة أقبح من اللتين كانتا قبل ذلك، ورجعوا إلى الطائف بعد أن قُتِل كثير منهم، وجيء برؤوسهم إلى مكة. ثم بعد يومين، وصل سيدنا الشريف محمد بن عون إلى مكة ومعه ابنه الشريف علي باشا، وأما ابنه الشريف

عبد الله باشا فإنه تأخر في دار السلطنة، ثم أعطي رتبة الوزارة، وصار من أعضاء مجلس شورى الدولة.

ثم بعد وصول سيدنا الشريف محمد بن عون إلى مكة بأيام، تجهّز بالعساكر وتوجه بهم إلى الطائف، ومعه ابنه الشريف علي باشا، والشريف عبد الله بن ناصر، وكثير من الأشراف والقبائل. وكان توجههم بعد أن أرسلوا للشريف عبد المطلب يعطونه الأمان، وأن يترك القتال، فامتنع وتحصّن بالطائف، واستعدّ للقتال، وأمر أهل الطائف بحمل السلاح على مثل الحال الذي كان سنة ثلاث وأربعين. وكان عنده بالطائف بعض من قبائل هذيل وثقيف وبني سفيان. فلما قرب الشريف محمد بالعرضي من الطائف هربوا من الطائف، وذهبوا للشريف محمد بن عون. ولما توجه الشريف محمد بالعرضي من مكة في أواخر شعبان، ولم يزل سائراً والقبائل تقبل عليه من كل ناحية، يعرضون عليه ويطلبون الأمان، وهو يؤمنهم ويكرمهم بالضيافة والدراهم والكساوى من الجوخ والشيلان. فلما قرب من الطائف، أمر بنصب العرضي في العقيق في الموضع الذي نصب فيه سنة ثلاث وأربعين، وحاصروا الطائف وضربوا عليهم المدافع، ولم يبق عند الشريف عبد المطلب أحد غير أهل الطائف والشريف الحسين بن منصور الشنبري وبعض الأشراف، فلما اشتد الحصار على أهل الطائف، خرج جماعة منهم بالخُفْيَة، ووصلوا إلى العرضي، وقابلوا سيدنا الشريف محمداً، وأخذوا منه أماناً لأنفسهم، ولأهل الطائف، وللشريف الحسين بن منصور الشنبري ومن معه من الأشراف، ثم فتحوا باب السور وأدخلوا العساكر، فأحاطوا بالدار التي كان فيها الشريف عبد المطلب، ثم أعطوه الأمان على نفسه، وقبضوا عليه وأركبوه على فرس. وأحاط به الشريف علي باشا، والشريف عبد الله بن ناصر وأتباعهما، وساروا به إلى أن أوصلوه العرضي، وسلموه للشريف محمد بن عون، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة المذكورة، فأنزله الشريف محمد بن عون في داره التي بالطائف عند باب الحرم، وجعل عليه عسكراً للتحفظ. واطمأنت الناس، وزالت الفتنة، وأمنت الطرق.

وفي شهر شوال، أنزلوا الشريف عبد المطلب من الطائف إلى مكة،

والعساكر محيطة به للتحفّظ، وبعد وصوله إلى مكة، أنزلوه إلى جدة، وسلموه لكامل باشا. فأركبه البحر، ووجهه إلى دار السلطنة ومعه عساكر للتحفظ، وشاع أن الدولة أمرت بتوجهه إلى سلانيك[٣٧]، فأرسل الشريف عبد المطلب إلى الصدر الأعظم رشيد باشا، يطلب أن تكون إقامته بدار السلطنة، فأجيب إلى ذلك. فجيء به إلى دار السلطنة، ونزل بالدار التي كان فيها أولاً، فبقي فيها في عز وإكرام، ولم تعاقبه الدولة على شيء مما كان. وأقام سيدنا الشريف محمد بن عون في مكة، بعد هذه الفتنة، سنتين، والناس في أمن وسرور. وقدم لمباشرة أكثر الأمور ابنه الشريف علي باشا، ومعه الشريف عبد الله بن ناصر. وفي سنة ثلاث وسبعين، عزل كامل باشا وتولى بدله محمود باشا الكردي، وكان والياً على اليمن، وقبل ولايته اليمن كان فريق قمندان العساكر بمكة. فلما ولي اليمن أعطي رتبة الوزارة، ثم عزل من اليمن وأعطي ولاية جدة، بعد أن عزل كامل باشا. فجاء إلى مكة، ومكث نحو سنة، ثم عزل وتولى بدله نامق باشا، فوصل إلى مكة في أوائل سنة أربع وسبعين.

(ذكر وفاة الشريف عبد الله بن ناصر سنة ١٢٧٤)

وقبل وصوله بأيام، توفي الشريف عبد الله بن ناصر، بعد أن مرض أياماً.

(ذكر وفاة سيدنا الشريف محمد بن عون سنة ١٢٧٤)

وفي الثالث عشر من شعبان في هذه السنة، توفي سيدنا الشريف محمد بن عون، وانتقل إلى رحمة الله تعالى، بعد أن مرض أياماً، رحمه الله تعالى، وعمره نحو السبعين. ودفن في قبة السيدة آمنة، والدة النبي ﷺ، بجانب قبرها، وخلّف ستة من الذكور، وهم: عبد الله وعلي وحسين وعون وسلطان وعبد الله، وكلهم في غاية الفطنة والنجابة والكمال، وخلّف أربعة من الإناث. فلما توفي أقام نامق باشا الشريف علياً باشا وكيلاً للإمارة إلى أن يأتي الخبر من دار السلطنة.

(ذكر ولاية سيدنا الشريف عبد الله باشا سنة ١٢٧٤)

ولما بلغ الخبر بالوفاة دار السلطنة، وجهت الدولة امارة مكة لابنه مولانا الشريف عبد الله، وقد تقدّم ذكر بقائه هناك، بعد مجيء والده إلى مكة، وأنه وجهت له رتبة الوزارة، وجعل من أعضاء المجلس الخاص[٢٨]. وزيادة على ذلك، اشتهر عند رجال الدولة بكمال العقل وحسن التدبير ومعرفة الأحكام. وكان قد قرأ في علم النحو، وصار له به دراية. واشتغل كثيراً بمطالعة كتب العلم من التفسير والحديث والفقه والأدب، واقتنى من الكتب شيئاً كثيراً، وكان يكثر في مجلسه من مذاكرة العلم والأدب، ويحضر في مجلسه كثير من العلماء والأدباء في كثير من الأوقات، وكان يحبهم ويعظمهم ويكرمهم ويقضي حوائجهم. وكان توجيه الامارة له في شهر رمضان، بعد مجيء خبر وفاة والده، ومكث في دار السلطنة بعد توجيه الامارة له شهوراً لقضاء مهماته، وتوجه إلى مكة في شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، ودخل مكة في موكب عظيم، وفرح الناس بولايته، وصارت له هيبة في قلوب الأشراف والعربان وكافة الناس، لعلمهم بدرايته وحسن سياسته حين كان قائماً مقام والده في الولاية الأولى. ولما قدم جاء معه بميزاب للكعبة محلى بالذهب، لم ير الراؤون أحسن منه، بعثه السلطان عبد المجيد، وأرسلوا القديم إلى دار السلطنة.

(ذكر فتنة جدة)

وينبغي أن نذكر هنا الفتنة التي كانت بجدة، قبل وصوله من دار السلطنة، وكانت بعد وفاة والده، لأن الفتنة المذكورة كانت في السادس من ذي القعدة، سنة أربع وسبعين، وملخصها إجمالاً أن صالح جوهر، أحد التجار بجدة، كان له مركب منشور فيه بندير الانكليز، والبندير هي البيرق. فأراد أن يغيّرها ويجعل فيه بندير من بنديرات الدولة العليّة. فسمع بذلك قنصل الانكليز فمنعه من ذلك، فلم يمتنع وأخذ رخصة من نامق باشا، فأذن له بوضع بندير الدولة العلية، وكتب له منشوراً بذلك، فوضعها ونشرها، وأزال بندير الانكليز. فطلع قنصل الانكليز البحر ودخل المركب المذكور، وأنزل بندير

الدولة التي نشرت ونشر بنديرة الانكليز. وشاع أنه لما أنزل بنديرة الدولة وطأها برجله، وتكلّم بكلام غير لائق، فغضب لذلك المسلمون الذين في جدة، فهاجوا هيجة عظيمة، وقصدوا دار القنصل وقتلوه. وثار من ذلك فتنة عظيمة قتلوا فيها غيره من القناصل الموجودين، ومن كان بجدة من النصارى، ونهبوا أموالهم وأرادوا أن يقتلوا فرج يسر أحد التجار المشهورين بجدة، لكونه كان محامياً عن قنصل الانكليز، ومعدوداً من رعيتهم فاختفى، فأراد عوام الناس أن ينهبوا داره، فمنعهم من ذلك عبد الله نصيف، وكيل مولانا الشريف محمد بن عون بجدة، وكان نامق باشا بمكة، والشريف علي باشا القائم مقام الإمارة كان قد توجه إلى المدينة المنورة، لمقابلة الحج. فلما جاء خبر هذه الفتنة لنامق باشا اهتم لذلك، ثم توجه إلى جدة، وسكّن الفتنة، وقبض على بعض الناس الذين نسب لهم القتل والنهب ووضعهم في السجن، وأرسل إلى الدولة العليّة يخبرهم بما وقع في هذه الفتنة، وطلع إلى مكة لأداء الحج.

فلما كان الثالث من أيام التشريق، والناس بمِنى، جاء الخبر من جدة بأنه جاءهم مركب حربي للإنكليز، وصار يرمي بالمدافع المحشوة بالقنبل على جدة، فخرج كثير من الناس من جدة هاربين بنسائهم، وأولادهم وأموالهم ركباناً ومشاة، فانزعج الناس من ذلك انزعاجاً شديداً. فلما فرغ الناس من أداء مناسك الحج، ونزلوا من مِنى، عقد نامق باشا في مكة مجلساً في ديوان الحكومة، أحضر فيه كثيراً من العلماء والتجار وأعيان الناس، وأحضر كثيراً من تجار جدة الذين قدموا مكة لأداء الحج، وكانوا حضروا وقوع الفتنة حين وقعت بجدة، وأخبرهم بمجيء المركب الحربي الذي جاء من الانكليز وبضربه القنبل على جدة، وبخروج كثير من الناس منها، وقال لهم: القصد المشاورة معكم فيما يحصل به تسكين هذا الأمر. فقال له كثير من الحاضرين أن الإسلام، لله الحمد، قويٌ، وأهلُه كثيرون، وذكروا له عدد قبائل الحجاز مثل هذيل وثقيف وحرب وغامد وزهران وعسير، وأنكم لو تعطون الناس رخصة ينفرون نفيراً عاماً فيجتمع من ذلك الألوف بل اللُّكوك، فيدفعون تعدّي الانكليز، ولا يرضون أن يقع عليهم هذا الذل. فقال لهم نامق باشا: هذا العدد الذي

ذكرتموه من قبائل العرب صحيح، بل يوجد مثله أضعافاً مضاعفة، لكن إذا اجتمعت هذه القبائل غاية ما يقدرون عليه أنهم يصلون إلى مكة وجدة، وبعد ذلك يدفعون هذا المركب عن جدة، فيحصل من الانكليز وغيرهم من النصارى تسلط على بقية مدائن الإسلام، ويجتمعون على محاربة الدولة العليّة، وليس عند هؤلاء القبائل التي اجتمعت قدرة على الدفع عن بقية مدائن الاسلام، لأنه ليس عندهم مراكب يعبرون فيها، ولا ذخائر ولا جبخانات ولا مدافع، ولا شيء مما يحتاجون إليه، وأيضاً مرادنا دفع هذا الضرر الآن، ولا يجتمع هؤلاء القبائل إلا بعد مدة طويلة، فلا بد من التدبير الآن في دفع هذا الضرر بالسرعة. فقال بعض التجار الحاضرين: يأذن لنا أفندينا في تفريق هذا المركب الحربي، الذي جاء يرمي بالمدافع المشحونة بالقنبل على جدة، فإن كثيراً من أهل البحر الموجودين تحت أيدينا لهم معرفة وصناعة بتغريق المراكب يأتونها من تحت الماء، ويغرقونها ببرامات يجعلونها في المراكب. فقال لهم: ليس هذا صواباً، فإنكم إذا أغرقتم مركباً يأتيكم بعده عشرة مراكب، وإذا أغرقتم العشرة يأتيكم مائة، وهكذا فيتسلسل الأمر ولا يزول الضرر، وأيضاً ربما يتركون جدة ويتوجهون إلى إضرار بقية مدائن الإسلام، وإنما الأحسن في تدبير هذا الأمر أنّا نتداركه باللطف وحسن السياسة، بأن نتوجه إلى جدة، أنا وكثير من أعيانكم، ونجتمع بقبطان هذا المركب، ونعقد معه أمراً يندفع به الضرر. فاستحسنوا رأيه. فتوجهوا إلى جدة وأخذ معه رئيس العلماء الشيخ جمال شيخ عمرو، ومعه من العلماء الشيخ صديق كمال، والشيخ ابراهيم النشار، والشيخ محمد جاد الله، وشيخ السادة السيد محمد بن اسحق بن عقيل، وتجار جدة الذين كانوا جاؤوا للحج. فلما وصلوا إلى جدة، صار اجتماعهم بالقبطان المذكور، وعقدوا مجلساً صار القرار فيه على أنه يصير تحقيق هذه القضية، ويحصل الانتقام ممن وقع منه التعدّي في هذه الفتنة، ويكون ذلك بعد رفع الأمر إلى الدولة العليّة، وانتظار الجواب منها بما تأمرون به. ورضي الجميع بذلك، وكتبوا به مضبطة، وختموها بأختامهم.

فلما كان أواخر شهر محرم من سنة خمس وسبعين، وصل إلى جدة مأمورون

من طرف الدولة، ومعهم أناس من كبار الانكليز والفرنسيس، وكان نامق باشا بجدة، فعقدوا مجلساً معه، واتفقوا على أنهم يحضرون الناس المتهمين في إحداث هذه الفتنة، ويقررونهم ويستنطقونهم كل واحد وحده، حتى يقفوا على حقيقة الأمر، ويعرفوا الذين قتلوا والذين نهبوا والذين هيّجوا. فلما تمّ قرارهم على ذلك، صاروا يعقدون مجالس لا يحضر فيها نامق باشا، وإنما يحضر هؤلاء المرخصون الذين جاؤوا مرسلين من الدولة ومن الانكليز والفرنسيس، وصاروا يقبضون على كل من صارت عليه تهمة، ويحبسونه في موضع وحده، ويسألونه ويستنطقونه بغاية التلطف والتعليم والتبجيل، ويحتالون عليهم بكل حيلة، ويكتبون كل ما يقول. فكان ملخص تلك الاستنطاقات أن أهل جدة الذين هاجوا في الفتنة، وحصل منهم القتل والنهب، قالوا إنما كان ذلك منا بأمر من التجار، وقاضي جدة الشيخ عبد القادر شيخ الأعيان، وسمّوا أناساً منهم. وقال الحضارم: أمرَنا بذلك شيخ السادة السيد عبد الله باهارون، وكبير الحضارم الشيخ سعيد العامودي، وقال شيخ السادة وسعيد العامودي وقاضي جدة وبقية التجار والأعيان إنما كان ذلك منا بأمر من عبد الله المحتسب، وقال عبد الله المحتسب إنما كان ذلك مني بأمرٍ من ابراهيم آغا، القائم مقام نامق باشا، . . . هذا ملخص استنطاقاتهم فإنها تتضمن الاعتراف بما وقع، والاعتراف بأنهم تسبّبوا في ذلك، إلّا أنهم أسندوا ذلك لسعيد العامودي وعبد الله المحتسب، والقائم مقام نامق باشا. وكان نامق باشا وهو بجدة يرسل إليهم سراً، ويقول لهم الحذر أن تقرّوا بشيء من ذلك، فإنه يصير عليكم ضرر كثير. فلم يمتثلوا ذلك، بل أقروا به، وسببه أن المرخصين الذين حضروا من الدولة والانكليز والفرنسيس كانوا يتلطفون بهم ويعظمونهم، ويحتالون عليهم بكل حيلة، ويقولون لهم: أخبِروا بالواقع، ولا يحصل لكم ضرر، ويسألون كل واحد وحده، فإذا نطق بشيء مخالف للواقع، يقولون له: إن فلاناً وفلاناً أخبرا بما هو كذا وكذا، وذلك يخالف ما تقول. ولا يزالون به حتى يطابق كلامُه كلامَ غيره. فلما انتهت الأسانيد كلها إلى ابراهيم آغا، القائم مقام نامق باشا، أحضروه وسألوه، فأنكر جميع ما نسبوه له، وكذبهم ولم يقرّ بشيء. فاحتالوا عليه بكل

حيلة، فلم يقر بشيء، فحبسوه في موضع وحده، ثم حكموا عليه بالنفي مؤبداً. ثم بحثوا أيضاً عن الأشخاص الذين حصل منهم القتل والنهب، فعرفوهم وحبسوهم، ثم تشاور هؤلاء المرخصون المرسلون من الدولة العليّة ومن الانكليز والفرنسيس فيما بينهم، واتفقوا على أن يقتل عبد الله المحتسب وسعيد العاموي ونحو اثني عشر نَفْساً من عوام الناس الذين وقع منهم القتل، وأنه يُنفى من جدة شيخ السادة وقاضي جدة وبعض التجار، بعضهم مؤبداً، وبعضهم إلى مدة مؤقتة ويُحبس كثير من الذين وقع منهم النهب، بعد أن أحضروا كثيراً مما أخذوه، وأن ما بقي من الأموال المنهوبة، يأخذون قيمته من الدولة العليّة. فلما تم قرار مجلسهم على ذلك، كتبوا به مضبطة وختموها بأختامهم، وأعطوها لناظر باشا، وطلبوا منه تنفيذ ذلك على ما جاؤوه به من الأمر من الدولة، فإنهم جاؤوه بأوامر فيها الأمر له بتنفيذ ما يتفقون عليه. فنفذه فأخرجوا عبد الله المحتسب وسعيد العامودي من الحبس، وقتلوهما في سوق جدة على رؤوس الأشهاد، وقتلوا الاثني عشر الذين من عوام الناس خارج جدة. وكان ذلك اليوم يوماً مهولاً في جدة اشتد فيه الكرب على جميع المسلمين، ثم نفوا من حكموا عليه بالنفي. فمنهم من قضى السنين التي أفتوها له ورجع إلى جدة، ومنهم من مات ولم يرجع إليها. فمن الذين رجعوا الشيخ عبد القادر شيخ قاضي جدة، والشيخ عمر بادرب، والشيخ سعيد بغلف. ومن الذين لم يرجعوا وتوفوا وهم منفيون السيد عبد الله باهارون، والشيخ عبد الغفار، والشيخ يوسف باناجه، رحمهم الله تعالى. وقبضوا من الدولة قيمة بقية الأموال المنهوبة، وكان شيئاً كثيراً... هذا ملخص تلك الفتنة باختصار، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، فإن هذه القضية كانت من أعظم المصائب على أهل الإسلام.

وكان قدوم سيدنا الشريف عبد الله المتولي إمارة مكة بعد تمام هذه الأمور كلها، وكان تأخره بدار السلطنة إلى هذه المدة، لأجل أن لا يناله شيء من الدخول في هذه القضية، ولا يمكنه المعارضة لما يتفقون عليه. ولما وصل إلى

جدة، كان هؤلاء المرخصون، الذين حضروا لتحقيق هذه القضية من الدولة والانكليز والفرنسيس، موجودين بجدة لم يسافروا. فحضروا عنده يوم وصوله جدة للسلام عليه، وقالوا له: صرنا ممنونين بقدومك إلى جدة قبل أن نسافر، لأنا نريد الوصول إلى مكة للتفرّج عليها، وخشينا أن يمنعنا أهل مكة من دخولها، ولما حضرت أنت تحقق عندنا أن نتمكن من ذلك، ولا يستطيع أحد أن يمنعنا، لأنك أنت الأمير المطاع النافذ الأمر. قال: إنهم لما طلبوا مني ذلك تحيّرت، ولا يقبلون مني في الجواب أني أقول لهم إن ذلك ممنوع في شرعنا، ولا يرضى المسلمون بذلك، فألهمني الله جواباً عقلياً اقناعياً، فقلت لهم: أنتم رأيتم صورة مكة في الخرائط والجغرافيات ليس فيها بساتين ولا أنهار، ولا شيء من الزخارف، وإنما هي واد غير ذي زرع بين الجبال، فلو أتيتم إليها ما تكسبون شيئاً زائداً عما علمتموه من صورتها التي رأيتموها في الخرائط والجغرافيات، فأرى أن وصولكم إليها تعب لكم بلا فائدة. فقنعوا بهذا الجواب، وأعرضوا عن طلب إليها، وتوجهوا إلى دار السلطنة. وكان سيدنا الشريف عبد الله باشا، لما قدم أميراً على مكة، معه معاون من الدولة، يسمى زكي باشا في مرتبة فريق. وفي سنة ست وسبعين غزا غزوة إلى الشرق، لقمع بعض المخالفين، وعاد منصوراً مظفراً. وكان ذلك في مدة نامق باشا قبل عزله، ثم عزل نامق باشا في آخر هذه السنة، وتولى بدله علي باشا الكتاهيلي، وفي هذه السنة ولد لسيدنا الشريف عبد الله ابنه الشريف علي.

(ذكر زيارة سعيد باشا والي مصر المدينة سنة ١٢٧٧)

في سنة سبع وسبعين، توجه سيدنا الشريف عبد الله إلى المدينة، لمقابلة سعيد باشا، والي مصر، ابن محمد علي باشا، حين جاء للزيارة، ثم لما رجع إلى مصر توجه معه إليها، ورجع إلى مكة في شهر شوال من هذه السنة.

(ذكر وفاة السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧
وتولية أخيه مولانا السلطان عبد العزيز)

وفي آخر هذه السنة كانت وفاة مولانا السلطان عبد المجيد، ابن مولانا

السلطان محمود. وكانت وفاته لسبعة عشر من ذي الحجة من سنة سبع وسبعين ومائتين وألف، وعمره أربعون سنة، ومدة سلطته اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر. وأقيم في السلطنة بعده أخوه مولانا السلطان عبد العزيز، وجاء إلى مصر سنة تسع وسبعين بعد ولاية اسماعيل باشا، وفي سنة ثمان وسبعين عزل علي باشا الكتاهيلي عن ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي، وتولى بدله عزت حقي باشا.

(ذكر وفاة سعيد باشا والي مصر سنة ١٣٧٩ وتولية ابن أخيه اسماعيل بن ابراهيم باشا)

وفي سنة تسع وسبعين توفي سعيد باشا والي مصر، وأقيم بعده اسماعيل باشا، ابن ابراهيم باشا، ابن محمد علي باشا، ولما تولّى عزت حقي باشا ولاية جدة سنة ثمان وسبعين، وصل إلى مكة في شهر رجب من السنة المذكورة، واستمر إلى سنة إحدى وثمانين، فعزل وتولى بدله محمد وجيهي باشا، وجعل له مشيخة الحرمين مكة والمدينة، ولم تقع لغيره. وفي هذه السنة، وُلِد لسيدنا الشريف عبد الله ابنه الشريف محمد، وأحضرني في التسمية فسمّيته.

(ذكر مسير سيدنا الشريف عبد الله لقتال عسير سنة ١٣٨١)

وفي هذه السنة أيضاً، كان مسير سيدنا الشريف عبد الله لقتال عسير، وأميرهم محمد بن عائض، لأنهم تجاوزوا الحدود، واستولوا على بعض محاكم الدولة. وصدر الأمر من الدولة العليّة لإسماعيل باشا، والي مصر، بأن يرسل عساكر من مصر لإعانة مولانا الشريف عبد الله على قتالهم، فامتثل الأمر وأرسل عساكر كثيرة، ونزلوا على القنفذة. وتوجه سيدنا الشريف عبد الله بمن معه من العساكر التي في مكة على طريق الليث، ثم وصل إلى القنفذة[٢٩]. وجعل العرضي في ناحية المخواة والأحسية، وأرسل إليه عسير وأميرهم محمد بن عائض يطلبون الصلح فامتنع وترددت الرسل بينه وبينهم في ذلك. وبينما هم كذلك، إذ جاءته مكاتيب من اسماعيل باشا، والي مصر، يطلب استرجاع

عساكره بالسرعة، ولم يمهل في تأخيرها. وتكرّرت منه تلك المكاتيب، فلما رأى الأمر كذلك عقد الصلح مع عسير وأميرهم، واشترط عليهم أن لا يتجاوزوا محاكمهم، فقبلوا ذلك فأرسل العساكر المصرية إلى مصر، ورجع إلى الطائف من طريق الحجاز بعد أن أقام مدة في بلاد غامد.

(ذكر وفاة الشريف سلطان ابن سيدنا الشريف محمد بن عون سنة ١٢٨٣)

وفي آخر شهر ذي الحجة من سنة ثلاث وثمانين، توفي بمكة، الشريف سلطان، ابن سيدنا الشريف محمد بن عون، وعمره نحو أربع وعشرين سنة، وخلّف بنتاً.

(ذكر وفاة محمد وجيهي باشا وتولية معمر باشا سنة ١٢٨٤)

وفي سنة أربع وثمانين، توفي بالطائف، وجيهي باشا والي جدة وشيخ الحرمين، في ربيع الثاني، وتولى بعده معمر باشا، ولم يجعل له مشيخة حرم المدينة كما كانت لوجيهي باشا، بل ولاية جدة ومشيخة حرم مكة فقط. ولما توفي وجيهي باشا، دُفِن في قبة الحبر، رضي الله عنه. وأقام سيدنا الشريف عبد الله عزت أفندي المحاسبجي مقامه، إلى أن وصل معمر باشا، وكان وصوله في شهر شوال من السنة المذكورة. وفي سنة خمس وثمانين، غزا سيدنا الشريف عبد الله ناحية الشرق، ووصل إلى رتبة لتأديب بعض القبائل، ورجع منصوراً مظفراً.

(ذكر ابتداء حفر خليج السويس سنة ١٢٨٦)

وفي سنة ست وثمانين، كان ابتداء حفر خليج السويس ليتصل بحر الروم ببحر القلزم، وكان تمام ذلك سنة إحدى وتسعين. وكان القائم بذلك دولة الفرنسيس والانكليز واسماعيل باشا والي مصر. وبعد تمامه جعلوا على المراكب التي تمر منه عوائد معلومة على قدر ما فيها من العمل، وهذا الذي حفروه،

حتى اتصل البحران، كان هرون الرشيد أراد أن يفعله ليتهيأ له غزو الروم، فمنعه يحيى بن خالد البرمكي، وقال له: إن فعلته تتخطف الافرنج المسلمين من المسجد الحرام فامتثل كلامه، وترك ذلك. والآن بعد أن فعلوه، يخشى على الثغور التي على البحر في جزيرة العرب منهم، فنسأل الله الحفظ. وفي مدة معمر باشا، كان ترتيب مجلس الادارة ومجلس التمييز بمكة والمدينة وجدة والطائف، وذلك سنة ست وثمانين.

(ذكر وفاة سيّدنا الشريف علي باشا ابن سيدنا الشريف محمد بن عون سنة ١٢٨٧)

وفي سنة سبع وثمانين، كانت وفاة سيدنا الشريف علي باشا، ابن سيدنا الشريف محمد بن عون، بدار السلطنة، لأنه توجه إلى دار السلطنة سنة ثمان وسبعين، وأعطي رتبة الوزارة، وصار من أعضاء مجلس شورى الدولة. ورجع إلى مكة سنة خمس وثمانين، ومكث شهوراً، ثم رجع إلى دار السلطنة وتوفي بها سنة سبع وثمانين، بعد أن مرض مدة، وعمره نحو ثمان وثلاثين سنة. وخلّف ابنيه، الشريف حسيناً، والشريف ناصراً، وأربعاً من الإناث. وتقدم أن ولادة الشريف حسين ابن الشريف علي كانت سنة سبعين. وأما الشريف ناصر، أخوه، فولادته كانت سنة تسع وسبعين بدار السلطنة أيضاً، ثم أرسله أبوه إلى مكة.

(ذكر عزل معمر باشا وتولية خورشيد باشا سنة ١٢٨٧)

وفي سنة سبع وثمانين، عزل معمر باشا من ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي، وتولى بدله خورشيد باشا، ووصل إلى مكة في شهر شوال من السنة المذكورة.

(ذكر فتنة حوا سنة ١٢٨٨)

وفي سنة ثمان وثمانين، في مدة خورشيد باشا، وقعت فتنة بمكة، تسمى فتنة حوا، كانت بين الأهالي والعسكر. كانت في شهر صفر من السنة المذكورة،

وكان سببها هذا الشخص المسمّى حوا، تضارب مع بعض العسكر في سوق المعلى، فثار لذلك أهل السوق، واقتتلوا مع العسكر. ثم انتشرت الفتنة في أطراف البلد من غير أن يعلموا السبب فيها، وقتل بعض العسكر وعولت الأسواق. فركب سيدنا الشريف عبد الله بنفسه ومعه بعض أتباعه، وخرج إلى السوق وأطراف البلد، وسكّن الفتنة. ثم قبضوا على كثير من عوام الناس الذين كانت منهم تلك الفتنة، وحبسوهم، ثم قرروهم بالاستنطاق، وعقدوا لذلك مجالس حضرها مولانا الشريف، وخورشيد باشا، والقاضي والمفاتي وكثير من العلماء، وحكموا على كل من ثبت عليه شيء بمقتضاه، وحكموا على بعضهم بالنفي سنين مؤقتة، واطمأنت الناس وزالت الفتنة.

(ذكر استيلاء الدولة العلية على بلاد عسير سنة ١٢٨٨)

وفي أول سنة ثمان وثمانين أيضاً، كان تمام الاستيلاء على بلاد عسير. وأصل تلك الفتنة أن محمداً بن عائض، أمير عسير، طغى وبغى ونقض العهود والصلح الذي عقده مع سيدنا الشريف عبد الله، سنة إحدى وثمانين كما تقدم، واستولى على كثير من المحاكم التي كانت تحت حكم الدولة، كبلاد بني شهر وغامد وزهران، ثم سار بجيش عظيم، سنة ست وثمانين، إلى الحديدة والمخا. وفعل أشياء يطول الكلام بذكرها، ثم أصاب جيوشَه مرضٌ ووباءٌ، فانهزم. فجهزت الدولة، سنة سبع وثمانين، الفريق رديف باشا ومعه عساكر كثيرة، فتوجه من جدة إلى القنفذة على طريق للبحر في شهر ذي القعدة، وجعل العساكر بالقرب من نحائل، وحشد عسير جنوده عند العقبة فتركها وصعد من عقبة أخرى، وملك الصراة من بلادهم، ونزل عليهم من خلفهم، وقاتلهم وانتصر عليهم، وقبض على محمد بن عائض وكثير من أمرائهم، وقتلهم وبعث بعضهم إلى دار السلطنة.

(ذكر وفاة الشريف شرف ابن سيدنا الشريف عبد الله سنة ١٢٨٨)

وفي سنة ثمان وثمانين في رمضان، توفي الشريف شرف، ابن سيدنا الشريف عبد الله بالطائف، وكان قد قرأ كثيراً من العلوم، ونجبَ فيها، فحزن عليه

حزناً كثيراً، رحمه الله تعالى، وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة.

(ذكر عزل خورشيد باشا وتولية قاسم باشا الفريق سنة ١٢٨٨)

وعزل خورشيد باشا في شوال سنة ثمان وثمانين، وتولى بدله الفريق قاسم باشا، وكان أولاً محافظاً على المدينة، ثم صار محافظاً لجدة، قائماً مقام خورشيد باشا في جدة، ثم وجهت له الولاية بعد عزل خورشيد باشا مع بقائه فريقاً، ولم يعط رتبة الوزارة، وجعل اقامته بجدة، وأنزل معه الخزينة والكتبة ومكث سنة.

(ذكر عزل قاسم باشا وتولية محمد رشيد باشا الأكز سنة ١٢٨٩)

ثم إنه عزل في شوال سنة تسع وثمانين وفيها كان استيلاء عساكر الدولة الذين في اليمن على مدينة صنعاء، واستمر محمد رشيد باشا إلى سنة إحدى وتسعين.

(عزل محمد رشيد باشا الأكز وتولية محمد رشدي باشا الشرواني سنة ١٢٩١)

وعزل محمد باشا، وتولى بعده محمد رشدي باشا الشرواني الداغستاني، وكان عالماً متفنناً، لأنه كان في سلك العلمية. وسبب انتقاله إلى الملكية، أنه طلب من شيخ الإسلام رتبة قضاء فامتنع، وكان الشرواني صديقاً للصدر الأعظم فؤاد باشا، فأعطاه رتبة الوزارة، وأدخله في سلك الملكية، وترقى إلى أن ولّي الصدارة بعد عالي باشا ومحمود نديم باشا، ثم عزل من الصدارة، وأعطي ولاية الحجاز، فقدم في شهر رجب من سنة إحدى وتسعين، وتوجه إلى الطائف.

(ذكر وفاة محمد رشدي باشا الشرواني وتولية تقي الدين باشا الحلبي سنة ١٢٩١)

وتوفي في أواخر شعبان بالطائف، فكانت مدته أقل من شهرين، ودفن في قبة الحبر، رضي الله عنه، في قبر وجيهي باشا. وتولى بعده تقي الدين باشا

الحلبي، وكان مفتياً في حلب كأبيه من قبله، ثم وقعت فتنة في حلب أُتّهم بالتسبّب لها، فوقع بينه وبين أهل حلب تنافر، فعزل من الفتوى وتوجه إلى دار السلطنة، ودخل في سلك الملكية، وأعطي رتبة الوزارة، وترقّى وولّي ولايات، منها بغداد التي ولّيها سنة واحدة بعد نامق باشا، ثم عزل من بغداد وجاء إلى دار السلطنة، ثم أعطي ولاية الحجاز سنة إحدى وتسعين بعد وفاة الشرواني، فقدم في ذي القعدة من السنة المذكورة. وفي سنة إحدى وتسعين، وُلِد للشريف عون باشا مولود سماه محمد عبد العزيز، واستمر تقي الدين باشا إلى سنة أربع وتسعين.

(ذكر خلع السلطان عبد العزيز سنة ١٢٩٣ وتولية السلطان مراد خان)

وفي سنة ثلاث وتسعين، خلع السلطان عبد العزيز، وأقيم في السلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد، وكان ذلك في السابع من جمادى الأولى من السنة المذكورة. ثم توفي السلطان عبد العزيز بعد خمسة أيام من خلعه، ثم خلع السلطان مراد في الحادي عشر من شعبان من السنة المذكورة، فكانت مدته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وأقيم في السلطنة أخوه السلطان عبد الحميد، ابن السلطان عبد المجيد بن محمود، وفي مدته كانت الحرب بين الدولة العلية والروسية.

(ذكر ابتداء تعليم أهالي مكة الحركات العسكرية سنة ١٢٩٤)

استحسن سيدنا الشريف عبد الله أن أهل مكة يتعلّمون حركات العساكر النظامية، وكيفية رميهم بالبندق، فصدر الأمر منه بذلك، لأجل إرهاب الروسية، وإظهار الاستعداد لهم. فامتثل الناس ذلك، وأحضروا لهم البنادق، وصار يعلمهم بعض العساكر النظامية الموجودة بمكّة. فتعلّم كثير من الناس في أقرب زمن، وكان ذلك في أول سنة أربع وتسعين، واستمر التعليم نحو أربعة أشهر، ثم تركوا ذلك.

(ذكر وفاة سيدنا المرحوم المبرور سيدنا الشريف عبد الله في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤)

في هذه السنة، توفي سيدنا الشريف عبد الله، ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون، بالطائف، في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة، رحمه الله تعالى. ودفن في قبة الحبر، رضي الله عنه، قريباً من قبر الحبر، وكان مريضاً بعرق النساء، أصابه من سنة تسعين، وعولج بعلاجات كثيرة وشفي منه، لكنه لم يحصل له تمام الشفاء، وبقيت آثاره معه بحيث لا يستطيع الركوب على الخيل، ولا يركب إلاّ في العربة، ولا يستطيع المشي إلا قليلاً بشيء يعتمد عليه في يده. وما انقطع في جميع المدة عن جلوسه في الديوان، ولا عن مقابلته للناس، ولا عن سماع الدعاوى وفصل الأحكام. وفي هذه السنة طرأ عليه داء الاستسقاء، وتقوى عليه من شهر جمادى الأولى إلى أن توفاه الله، رحمه الله تعالى، سنة أربع وتسعين، وعمره نحو ست وخمسين سنة، ومدة إمارته نحو تسع عشرة سنة. وخلّف اثنين من الذكور، علياً ومحمداً، وأربعاً من الإناث وبعد وفاته بأيام، أعطي ابنه الشريف علي رتبة باشا، وكذا الشريف الحسين ابن الشريف علي باشا، وجاء الأمر من الدولة بذلك، ولما توفي سيدنا الشريف عبد الله، أقام تقي الدين باشا أخاه الشريف عوناً باشا وكيلاً قائماً مقام الامارة، وكان أخوه الأكبر منه، الشريف حسين باشا، بدار السلطنة.

(ذكر توجيه امارة مكة لسيدنا الشريف الحسين وقدومه في شعبان سنة ١٢٩٤)

وجهت له الدولة امارة مكة، فقدم في شعبان من السنة المذكورة، وتوجه الشريف عون إلى دار السلطنة، في شوال من السنة المذكورة، فأعطي رتبة الوزارة، وجعل من أعضاء شورى الدولة.

(ذكر عزل تقي الدين باشا وتولية حالت باشا سنة ١٢٩٤ ووفاته بجدة سنة ١٢٩٦ وتولية ناشد باشا سنة ١٢٩٦)

وفي شهر ذي القعدة من سنة أربع وتسعين، عزل تقي الدين باشا من ولاية

الحجاز، وولي بعده حالت باشا، واستمر إلى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، فتوفي بجدة في شهر جمادى الآخرة، وولي بعده ناشد باشا، ووصل إلى مكة في شعبان من السنة المذكورة. وكان سيدنا الشريف الحسين حين وصوله غازياً ناحية تربة، ثم وصل آخر شعبان منصوراً مظفراً. واستمر سيدنا الشريف الحسين في امارة مكة إلى سنة سبع وتسعين، وفيها توجه إلى جدة في أوائل ربيع الثاني. فعند دخول جدة، وهو سائر في موكب حافل، جاءه رجل أفغاني وقصده وهو راكب، كأنه يريد تقبيل يده.

(ذكر طعن سيدنا الشريف الحسين ووفاته بجدة ونقله إلى مكة سنة ١٢٩٧)

فطعنه بسكين في أسفل خاصرته، فاشتد عليه الألم، فنزل عن جواده، وكان قد قرب من الدار التي يريد النزول بها، وهي دار عمر نصيف. فتعاضده بعض خدمه، وأدخلوه الدار. فلما علموا أنه مطعون طلبوا ذلك الأفغاني حتى وجدوه بين الناس، فقبضوا عليه. ثم توفي سيدنا الشريف الحسين بعد يومين، ونقلوه إلى مكة، ودفنوه بها في قبر والده في قبة السيدة آمنة، والدة النبي ﷺ، رحمه الله تعالى، وعمره نحو اثنتين وأربعين سنة وشهور، وخلّف ثلاث بنات ولم يخلّف ذكراً. ثم إن ذلك الأفغاني الذي طعنه قرر عن سبب قتله، وعذب بأنواع العذاب، فلم يقر بشيء، ولم يقر بأحد أغراه على ذلك، فقتل بعد ذلك.

(ذكر الامارة الثالثة لسيدنا الشريف عبد المطلب سنة ١٢٩٧)

ولما وصل الخبر إلى دار السلطنة، وكان الشريف عبد المطلب بدار السلطنة، وجهت إليه إمارة مكة، فتوجّه من دار السلطنة، فلما وصل إلى ينبع توجه للمدينة المنوّرة، وأقام فيها أياماً ثم رجع إلى ينبع، وتوجه إلى جدة، ثم إلى مكة ودخلها في الحادي عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ووالي جدة إذ ذاك ناشد باشا. ثم وقع بينه وبينه اختلاف وتنافر لأسباب اقتضت ذلك، وذلك أن الشريف عبد المطلب كان في هذا الوقت طعن في السن وكبر، فصار

كثير من أتباعه المباشرين للمصالح يحسنون له فعل بعض الأشياء، فيوافقهم على ما يقولونه ويأمر بها، وينسب الناس إليهم أنهم يأخذون من الناس رشوة في مقابلة تلك المصالح، فكثر بسبب ذلك القيل والقال، ووقع التنافر بينه وبين ناشد باشا. فمن تلك الأشياء التي أوجبت التنافر أنهم أخبروه بأشخاص أنهم يقبع منهم كلام غير لائق، فغضب، فأحضر ثلاثة منهم، وهم عبد الله بن فويحص ومحمد تركي ومساعد الهابط، وكان إحضارهم ليلاً، فأمر بضربهم، فضربوا ضرباً كثيراً، ثم بعد أيام مات من ذلك الضرب عبد الله بن فويحص ومحمد تركي، وشفي مساعد الهابط، فكثر كلام الناس في هذه القصية.

ومن ذلك أنه رأى داراً تجاه داره التي في القرارة في مدة غيبته، بناها الشريف مهدي بن أبي طالب الحمودي، وكانت عالية مشرفة، فقال إن هذه الدار تكشف على داري، وفي بقائها ضرر كثير لا أتحمله، فأمر بهدمها بعد أن أحضر مشرفين أشرفوا عليها، ووافقوه على أن في بقائها ضرراً. وأحضر أولاد الشريف مهدي، وقال لهم: أدفع لكم أربعة آلاف ريال في مقابلتها. وكتب في ذلك حجة عند القاضي ببيعهم إياها له، فكانوا يقولون: إنهم مكرهون في ذلك. وبعد هدمها، كثر كلام الناس أنه كتب تقريراً للشريف دخيل الله العواجي في دلالات الحلقة التي يباع فيها الفواكه والخضر، فمنع دخيل الله أهلها الذين كانوا يباشرون الدلالات فيها، ثم اشتروا منه تلك الدلالات بمبالغ كثيرة. وفعل مثل ذلك في دلالات الفحم والحطب والحشيش، وقرر فيها أشخاصاً من الأشراف، وكذلك فعل مثل ذلك في خراجات جمال بعض بيوت مشايخ الجاوى، فكثر كلام الناس في ذلك كله. وحصل أيضاً اختلال في الطرق، وعدا كثير من الاعراب في طريق الطائف وجدة والمدينة.

(ذكر عزل ناشد باشا وتولية صفوت باشا سنة ١٢٩٧)

ثم إن الدولة عزلت ناشداً باشا، ووجهت الولاية لصفوت باشا، فوصل إلى مكة في أوائل شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، أعني سنة سبع وتسعين. وتوجه ناشد باشا إلى دار السلطنة بعد أن حج، واستمر صفوت باشا إلى سنة

ثمان وتسعين، وكان الاتفاق بينهما أكثر مما كان مع ناشد باشا، للأسباب المتقدمة وأسباب غيرها، ومعارضات في بعض القضايا، واتسع الأمر بينهما.

(ذكر عزل صفوت باشا وتولية أحمد عزت باشا سنة ١٢٩٨)

وعند تمام شهر ذي الحجة من سنة ثمان وتسعين، عزل صفوت باشا، وتولى بدله أحمد عزت باشا الأرزنجاني الذي كانت ولايته سابقاً في سنة تسع وستين، في مدة الشريف عبد المطلب في الولاية التي قبل هذه. وقبل وصول أحمد عزت باشا، وصل إلى جدة الفريق عثمان باشا قمندان العساكر وقائمقام أحمد عزت باشا إلى قدومه، وتوجه صفوت باشا إلى دار السلطنة في أوائل سنة تسع وتسعين، وقدم أحمد عزت باشا في المحرم من السنة المذكورة، واجتمع بصفوت باشا في جدة قبل توجهه. وكان أحمد عزت باشا المذكور قد طعن في السن، وبلغ نحو التسعين، إلاّ أنه قويّ البنية. وكان بين ولايته هذه وولايته الأولى نحو ثلاثين سنة. وكان عثمان باشا قمندان العساكر يباشر كثيراً من الأحكام، ويعارض الشريف عبد المطلب في كثير منها.

(ذكر عزل أحمد عزت باشا وتوجيه الولاية لعثمان باشا سنة ١٢٩٩)

واستمر الحال على الاختلاف إلى عشرين من شعبان من السنة المذكورة، أعني سنة تسع وتسعين. فجاء الأمر في التلغراف بعزل أحمد عزت، وولاية عثمان باشا القمندان بدله، وهو في رتبة فريق كما كان، فتوجه أحمد عزت باشا إلى دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة، وبقي عثمان باشا والياً. وكان لما توجه إلى الطائف في شعبان، صحب معه مدافع كثيرة وجبخانات، وكثر خوض الناس في ذلك، وصاروا يقولون إنه يريد القبض على الشريف عبد المطلب، ويريد ولاية الشريف عبد الله باشا، ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون إمارة الحجاز.

(ذكر كيفية خلع الشريف عبد المطلب من الامارة وتوجيهها للشريف عبد الله باشا في ٢٨ من شوال سنة ١٢٩٩)

فلما كان ليلة الثامن والعشرين من شهر شوال من السنة المذكورة، أخرج بعد منتصف الليل كثيراً من العساكر إلى المثناة، ومعهم مدافع، وبعض من الأشراف ذوي عون وعمر باشا رئيس العساكر، وطلعوا في الجبال التي في المثناة المحيطة بالدار التي فيها الشريف عبد المطلب، وأطلعوا معهم المدافع، ورتبوا ذلك كله بالليل، ولم يشعر أحد بهم. فلما طلع النهار، أرسلوا للشريف عبد المطلب، وأخبروه بأنك معزول ومطلوب حضورك لدار السلطنة، وأنه ورد إلينا تلغراف بذلك، وبولاية الإمارة للشريف عبد الله باشا، وأرسلوا له صورة التلغراف الذي قالوا إنه ورد إليهم، فطلب مهلة إلى أن يقضي اشغاله. ونظر ورأى العساكر قد ملأت الجبال وأحاطت بداره، فلم يعطوه المهلة التي طلبها. وبعد ساعة خرج من داره وركب العربة، وأحاطت به العساكر إلى أن أوصلوه إلى القِشْلة التي فيها العساكر بالطائف، وهيأوا له فيها موضعاً فنزل به، ووضعوا العساكر للتحفظ عليه محيطة بالموضع الذي نزل به، ثم أطلقوا منادياً بالطائف بولاية الامارة للشريف عبد الله باشا استقلالاً، وأرسلوا إلى مكة، وفعلوا مثل ذلك، فاختلفت آراء الناس. فبعضهم يقول إنما جعلوا الامارة استقلالاً للشريف عبد الله باشا، لأجل تسكين العربان وأمن الطرق، لأنهم لو لم يفعلوا كذلك، لم يحصل اطمئنان للناس، ولو قالوا إنه وكيل، ما حصل الاطمئنان، ولا تصدق القبائل والعربان وتطمئن، إلا إذا كان الأمر كذلك. ففعل عثمان باشا كذلك استحساناً منه، وأظهر أنه إنما فعله بأمر من الدولة، وبعض الناس يقول: بل جاء الأمر تحقيقاً من الدولة بوضع الشريف عبد الله استقلالاً وأمنت الطرق، واطمأنت الناس، وأقبلت القبائل عليه طبق العوائد الجارية. ثم نزل الشريف عبد الله إلى مكة في النصف من ذي القعدة، وكذلك الوالي عثمان باشا، وبقي الشريف عبد المطلب وعنده بعض العسكر للمحافظة، وبعد الحج أوصلوه إلى مكة في داره عند أهله، وعلى الدار عسكر للمحافظة.

(ذكر ولاية سيدنا الشريف عون الرفيق باشا سنة ١٢٩٩)

ثم في أواخر شهر ذي القعدة، جاءت الأخبار بالتلغراف من دار السلطنة، بأن الدولة العليّة وجهت إمارة الحجاز لسيدنا الشريف عون باشا، وكان مقيماً بدار السلطنة كما تقدم، وأن الشريف عبد الله باشا وكيل عنه إلى قدومه، فامتثل الشريف عبد الله ذلك، وأخذ يهيّىء الأسباب اللازمة لقدوم أخيه، سيدنا الشريف عون الرفيق باشا، وبعث لمقابلته من جدة، أولاد أخيه الشريف حسين باشا ابن المرحوم الشريف علي باشا، والشريف علي باشا ابن المرحوم سيدنا الشريف عبد الله باشا. وبقي الناس في انتظار قدومه إلى يوم الثامن من ذي الحجة. وكان كثير من الناس توجهوا إلى جدة لمقابلته، وبقية الناس صعدوا إلى عرفة لأداء فريضة الحج، وصعد أيضاً إلى عرفة الشريف عبد الله باشا، فلما كان يوم عرفة وهو التاسع من ذي الحجة، وصل سيدنا الشريف عون باشا إلى جدة، وكان يمكنه إدراك الوقوف بعرفة، لو توجه من جدة مسرعاً لكن كان معه شيخ الحرم النبوي وبعض من رجال الدولة ويشق عليهم التوجه إلى عرفة بسرعة السير، فرعاية لهم بقي معهم بجدة، وفات الجميع الحج، ووصل إلى مكة يوم النحر، واستقبله بمكة أخوه الشريف عبد الله باشا، ثم صعدوا إلى مِنى جميعاً عصر يوم النحر، وقرىء فرمان ولايته الذي قدم به ثاني يوم النحر على مثل العادة التي جرت في كل سنة، فإنه في كل سنة في مثل ذلك اليوم يقرأ فرمان التأييد لأمير مكة، فجرى الأمر على مثل العادة الجارية، وأقاموا بمنى إلى انقضاء أيام مِنى ثم رجعوا إلى مكة، وحصل للناس غاية الأمن والفرح والسرور، ثم توجهت الحجج والقوافل على طبق العادة الجارية كل سنة.

(ذكر فتنة عرابي بمصر سنة ١٢٩٨)

ولنذكر، على سبيل الاستطراد، الفتنة العظمى التي وقعت بمصر هذه السنة، تتميماً للفائدة، وتسمى فتنة عرابي، وكان انتهاؤها في شوال من هذه السنة، أعني سنة تسع وتسعين، وكان ابتداؤها في سنة ثمان وتسعين. لكن الأصل الذي نشأت بسببه وتأسست عليه كان قبل ذلك، وذلك أن الأصل الأصيل

كان من مدة اسماعيل باشا، لأنه استدان ديوناً كثيرة من الانكليز والفرنسيس، وصار التراضي بينه وبينهم على أنهم يجعلون أناساً منهم يباشرون المتحصلات من أموال مصر، ويضبطونها ويجعلون قسطاً منها لمقابلة ديونهم، فعينوا أشخاصاً من الفريقين لمباشرة ذلك سنة خمس وتسعين. ثم إن اسماعيل باشا رأى منهم أنهم صاروا يتداخلون في أكثر الأمور، ويريدون أن لا يفعل شيئاً إلا باطلاعهم ومعرفتهم، فخاف من اتساع الأمر، وسلب الملك منه، فأراد أن يجعل له عصبية من أهالي مصر، وأن يشكل منهم مجالس ويكون أعضاؤها من العلماء ووجوه الأهالي والعمد من مشايخ البلدان. فشرع في ذلك ليكون الأمر بيدهم صورة، وأنه لا يفعل شيئاً إلا بمشورتهم ليدفع بذلك تغلب الانكليز والفرنسيس وتسلطهم، ففطنوا لذلك، فسعوا في خلعه وإقامة ولده محمد توفيق باشا بدله، فما زالوا يجتهدون في ذلك حتى تم لهم.

(ذكر عزل اسماعيل باشا واقامة ولده محمد توفيق باشا والياً على مصر سنة ١٢٩٦)

. . . فخلعوه بأمر من السلطنة السنية، وأقاموا ولده توفيقاً باشا بدله، ونفوه وعائلته إلى نابولي من بلاد ايطاليا، كل ذلك كان سنة ست وتسعين. ثم إن الدولة العليّة أرادت أن تنقص توفيقاً باشا بعض التميزات التي كانت لوالده اسماعيل باشا، وتجدد في الفرمان التي تحرر له شروطاً، فامتنعت دولة الانكليز والفرنسيس من تنقيص شيء، واجتهدت في أن الدولة تحرر له فرمان الولاية على مثل ما كان لأبيه، ويكون عليه من الخراج، مثل ما كان على أبيه. ولم تزل الدولتان المذكورتان تجتهدان مع الدولة في ذلك، إلى أن استخرجت له الفرمان على مثل ما كان لأبيه، وجعل رئيس الوزارة رياض باشا وكان رئيساً على العساكر أحمد عرابي بيك، ثم ترقى وصار أحمد عرابي باشا، فاتفق مع كثير من رؤساء العساكر على عزل رياض باشا في النصف من شوال سنة سبع وتسعين. ولم يزل الأمر في اتساع إلى ابتداء شهر جمادى الآخرة من سنة تسعة وتسعين، فحضر في ميناء الاسكندرية كثير من البوابورات الحربية التي للانكليز

والفرنسيس، ووابورات لغيرهم أيضاً، لإعانة توفيق باشا ومنع عرابي باشا ومن معه من التغلب، ومن التجهيزات التي شرع فيها، وبقي الأمر كذلك حتى انتشبت الحرب بين عرابي وعساكر الانكليز، وانتهت بدخول أولئك العساكر مصر، وعقاب عرابي وبعض من معه بعقوبات مختلفة الأنواع.

ومن الحوادث الغريبة التي وقعت سنة تسع وتسعين، أنه ظهر رجل، ببلاد السودان التي هي في حكم صاحب مصر، يقال له محمد أحمد، اشتهر عند كثير من الناس أنه المهدي، وتبعه خلق كثير، ووقع بينه وبين العساكر المصرية التي في تلك الأطراف قتال، ووقائع كثيرة، قتل فيها خلق كثير. وتملك من تلك البلاد كردفان ومواضع أخر، وحاصر سنارا مدة، ثم انهزم عنها، وبقيت العساكر المصرية مجتمعة في الخرطوم، وبعث إليهم توفيق باشا صاحب مصر إمدادات كثيرة من العساكر، وغيرها من آلات القتال، ومعهم كثير من الانكليز الذين لهم دراية بالحرب، وانقضت سنة تسع وتسعين، ودخلت سنة ثلاثمائة بعد الألف، ومضى منها شهور، ولم ينفصل الأمر بينهم وبينه.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ثلاثمئة، توجه الشريف عبد الله باشا إلى دار السلطنة، ومعه ابن أخيه الشريف ناصر ابن المرحوم الشريف علي باشا. فلما وصلا إلى دار السلطنة قوبلا بالعز والإكرام، وأعطيت رتبة الوزارة للشريف عبد الله باشا، وجعل من أعضاء مجلس شورى الدولة، وأعطي للشريف ناصر رتبة باشا، وأعطي الشريف محمد ابن المرحوم الشريف عبد الله باشا أيضاً مثله رتبة باشا، وجاءته البشرى بذلك، وقبل ذلك بأيام جاءت البشرى بترقية رتبة الباشوية للشريف حسين باشا ابن الشريف علي باشا، والشريف علي ابن الشريف عبد الله، وصارا في مثل الرتبة التي كان فيها الشريف عبد الله.

وفي شهر رمضان من هذه السنة، أعني سنة ثلاثمئة وألف، كانت فتنة في أطراف مكة بخروج بعض العرب من قبائل زبيد وبشر ومعبد وسليم، خرجوا في طريق جدة، وصاروا ينهبون الحمل الذي يمر بهم، وهجم جماعة منهم على جدة في ليلة العاشر من رمضان، وحصل من ذلك اضطراب كثير، ثم هربوا. وكان سيدنا الشريف عون بالطائف، فنزل في أواخر رمضان وجهز جيشاً

لغزوهم، ووصل به إلى عسفان، ووقع قتال قليل، ثم وقع الصلح، وجاؤوا طائعين، وسكنت الفتنة، وأمنت الطرق وسلكت، واعتذروا بأن الفاعل لذلك بعض الجهال منهم. ولم يرض الشيوخ به، وأن الحامل على ذلك أن الحكماء الذين بمكة وجدة يأخذون الغنم التي يجلبونها لمكة، ويدفنونها في الأرض لأن فيها أثر الوباء الذي يسمونه بالكُلِيرَة، وأنه ذهب لهم بذلك أموال كثيرة وأن النصارى الذين بجدة يأخذون رقيقهم، ويطلقونه من أيديهم ويرفعون الرق عنه، حتى عصي عليهم عبيدهم. وقيل إن من أسباب ذلك حبس الشريف عبد الله بن زين أحد الأشراف ذوي حسين، فإنه لما قبض على الشريف عبد المطلب قبض عليه وعلى الشريف علي بن سعد السروري وحبسا، وطالت مدة حبسهما، ويُدعى عليهما بدعاوى، الله أعلم بصحتها[٣٠].

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة إحدى وثلاثمئة، وردت أخبار إلى مكة، بأن محمد بن أحمد القائم بالسودان استولى على الخرطوم، وأن قصده التوجه إلى الصعيد ثم إلى مصر، وقبل ذلك وقع قتال بين بعض جيوشه وبين الانكليز، في بر سواكن، وكان المقدم على جيش محمد بن أحمد في ذلك القتال، عثمان دقنة. وتكرر القتال بينه وبين الانكليز في وقائع. وكلها يكون النصر فيها له على الانكليز، وقتل منهم خلق كثير ثم انهزموا، وبقيت جيوش عثمان دقنة في بر سواكن[٣١].

وهذا آخر ما انتهى إليه قلم المؤلف، رحمه الله تعالى، كما هو آخر مسودة هذا التاريخ. وذلك منقول بقلم راجي عفو ربه المنّان الطوبجي محمد سعيد بن محمد بن سليمان، لطف الله به وبوالديه ومشايخه وجميع المسلمين، وغفر له ولهما ولهم أجمعين، ووفقه لما يرضيه من العلم النافع، والعمل الصالح، ووجهه للخير أينما كان، وختم له بالإيمان، بجاه سيد الأكوان ﷺ.

فإنّ لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

وذلك يوم السبت الموافق عاشر يوم من شوال من شهور سنة ١٣٠٤، والحمد لله رب العالمين.

* * *